

(٥)

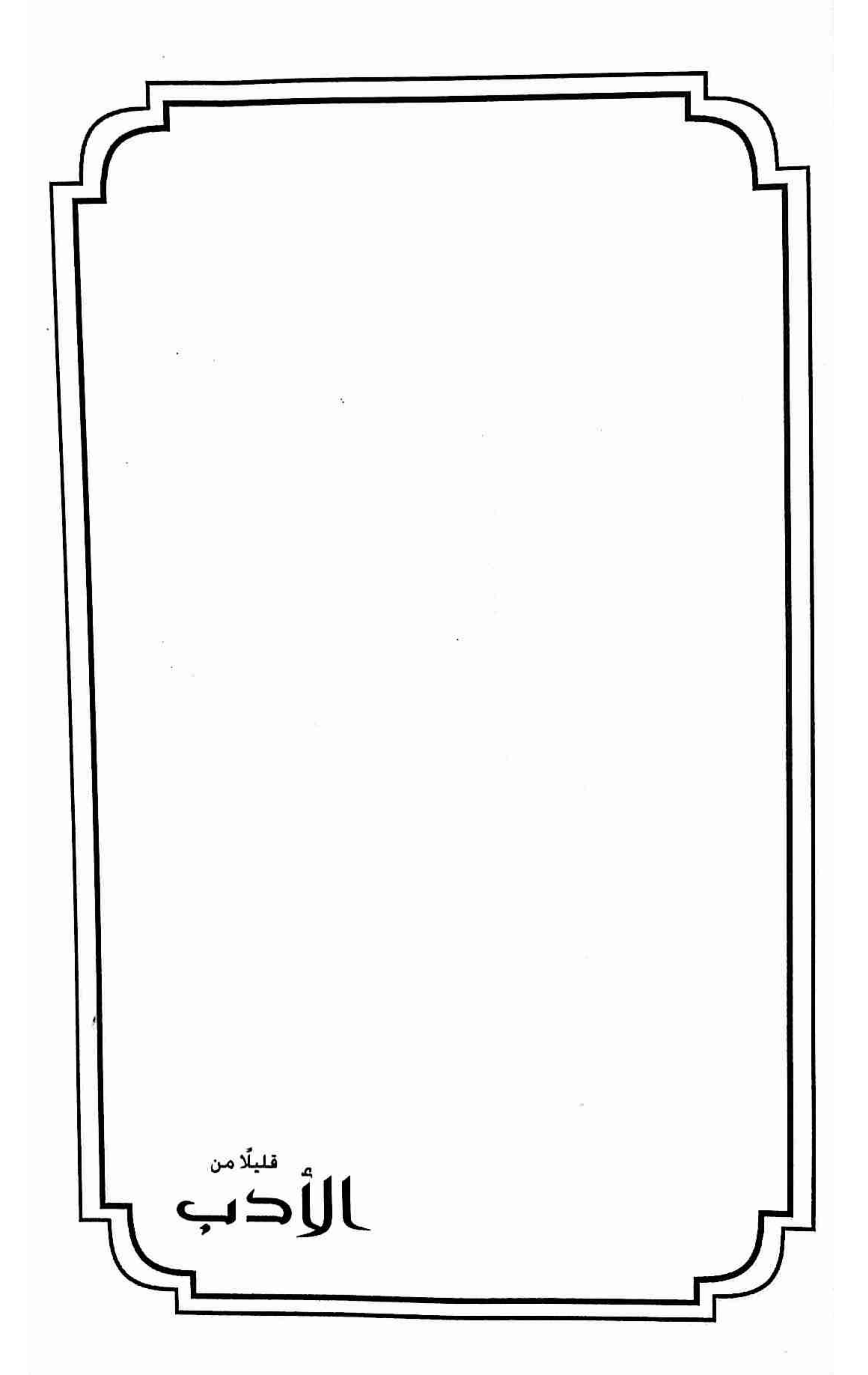
قليلًا من

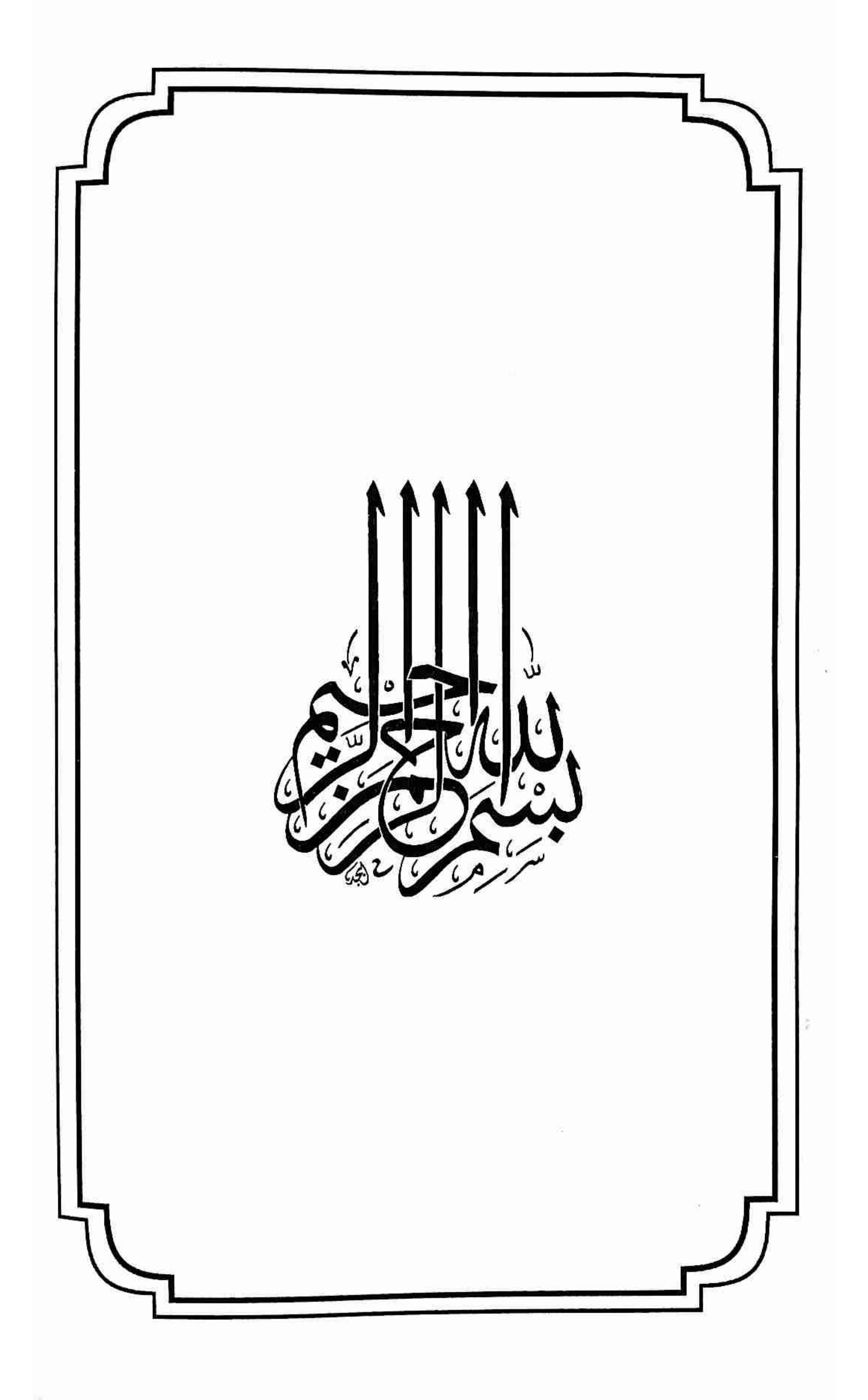
الأدب

قدم له
معالي الشيخ العلامة
د. عبد الله بن بيه

إعداد
عادل أحمد باناعمة

دار ابن حزم


قليلًا من
الأدب


بسم الله الرحمن الرحيم

جسور أدبية (١)

قليلاً من الأدب

إعداد

عادل أحمد باناعمة

عضو هيئة التدريس بكلية اللغة العربية - جامعة أم القرى

وعضو رابطة الأدب الإسلامي

قدّم له

معالي الشيخ العلّامة

د. عبد الله بن بيّه

دار ابن حزم

الطبعة الثانية
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

ISBN 978–9953–81–440-7

معهد مكة المكرمة بجدة

هاتف : ٠٠٩٦٦٢٦٢٣٠٠٧٧
فاكس : ٠٠٩٦٦٢٦٢٣٠٠٥٥
ص.ب (٣٥٠٢٣) جدة (٢١٤٨٨)
www.MAKKAHACADEMY.net

توزيع
مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع
هاتف الرياض : ٠٠٩٦٦٥٥٤٤٨١٩٠٥
هاتف جدة : ٠٠٩٦٦٥٠٠١٥٠٤٠٤

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون : ٧٠١٩٧٤

الإهداء

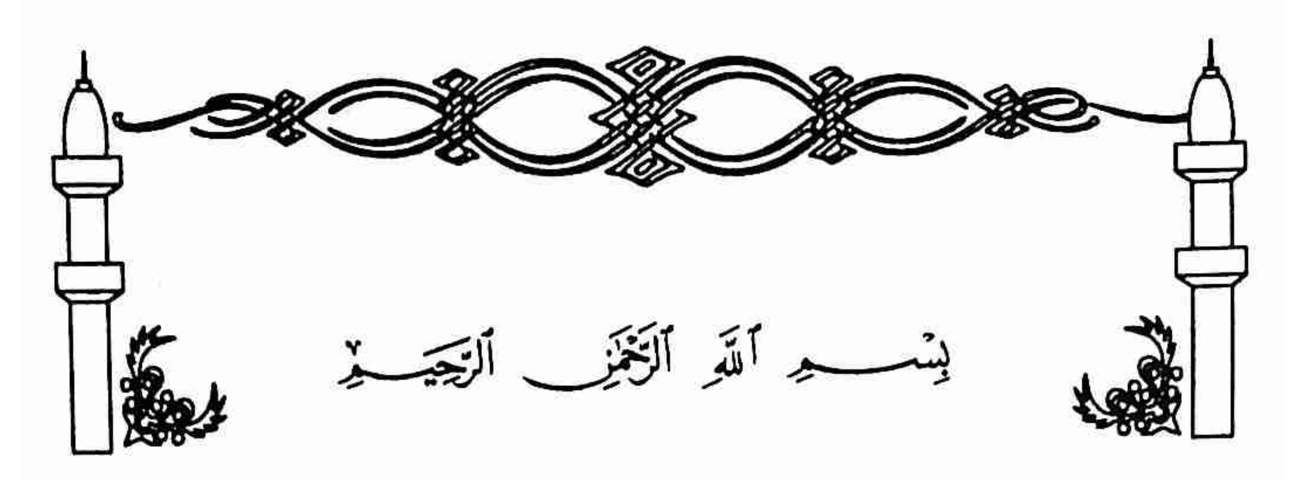
إلى القلب الفَيّاض بالمحبة. . .

المليء باليقين. .

المترع بالصبر. .

إلى والدتي الحبيبة التي غرست فأحسنت الغِراس. .

فكان هذا الكتاب في الحقيقة ثمرة من ثمارها. .



تقديم

بقلم معالي الشيخ العلامة

د. عبدالله بن الشيخ المحفوظ بن بيّه

وزير العدل الموريتاني الأسبق

والأستاذ بجامعة الملك عبدالعزيز ـ جدّة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه والسائرين على منهاجه ودربه.

وفي الحديث الشريف الذي يشجع الأمة ويخلد أملها في التجديد والتجدد: «أمتي مثل المطر لا يُدْرَىٰ أوله خير أم آخره». أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

قال أبو تمام:

فلو كان يَفْنى الشِّعْرُ أفناه ما قَرَتْ   حياضُكَ منه في العصور الذواهبِ
ولكنّه صَوْبُ العقول إذا انقضت   سحائب منه أعقبت بسحائبِ

قال مجد الدين الفيروزآبادي يعرِّض بالجوهري، وينوّه

بمواهب المتأخر: «على أني لو رمتُ للمناضلة إيتار القوس لأنشدت بيتي الطائي حبيب بن أوس:

يقول من تقرع أسماعَهُ   كم ترك الأول للآخر»

ذلك الحديث وتلك الأقوال الحكيمة تبشر بالتجديد والتجدد لهذه الأمة في مجالات الحياة ومَجَالِي فنون التجلّيات.

ولكن أين نبحث عن التجدد؟ أعند الجَلْفَزِيْزِ[1] العَوْزَمِ[2] اليَفَنِ[3] أم نلتمسه لدى الشباب الفطِنِ الطَّبِنِ[4] اللَّقِنِ؟ والأخير أحرى.

وذلك ما لمسناه في بواكير تباشير أعمال ابننا اللوذعيِّ الألمعيِّ الشاب الشيخ/ عادل بن أحمد با ناعمة الأدبية، فهو يمثل البرهان الساطع، و«الضياء اللامع» على عبقرية هلال يتبدَّر، ويَهْفُوفٍ[5] يتصدّر، وينبوعٍ فياضٍ يتفجّر، في مجال نضبت أنهاره، وغارت بحاره، وهوَ مجالُ الأدب الذي قال فيه شيخي المعمّر محمدُ سالم بن الشين رحمه الله:

حين خلت من أهلها الأطلالُ   وقعدت تنشد فيها الحالُ
«أمربع الغصن أذي أعلامُهُ؟   لا هو هو لا ولا أيامُهُ»

إنّ جسوراً أدبية مَدَّت جسور الأمل، وأنعشت ذَمَاءَ الأدب،

---

(١) العَجوزُ المتشنجةُ، والثقيلُ.
(٢) الناقة المسنّة، والعجوز.
(٣) الشيخ الكبير.
(٤) الطِّبنُ: صاحبُ النباهة والفطنة.
(٥) اليهفوف من الرجال: حديدُ القلب.

وأشعلت ذُبالة فنِّ الترسّل، واشتملت على جملةٍ جميلةٍ من «أدب الدين والدنيا»، ونبذةٍ ممتعة من «طرائف» الأدب و«تلائده»، متنقلةً في رياضه، كارعةً في جميم حياضه، راتعةً في جميم كَلَئِهِ بين أوديته وغياضه.

وفي التنقل إذكاءٌ لجذوة النفوس إذا خمدت، وفي التحوّل إيقاظٌ من سِنَةِ الغفلة إذا عرضت:

لا يُصْلِحُ النّفسَ إذ كانت مُدَبَّرَةً   إلا التنقّلُ من حالٍ إلى حالِ
[أبو العتاهية]

و:

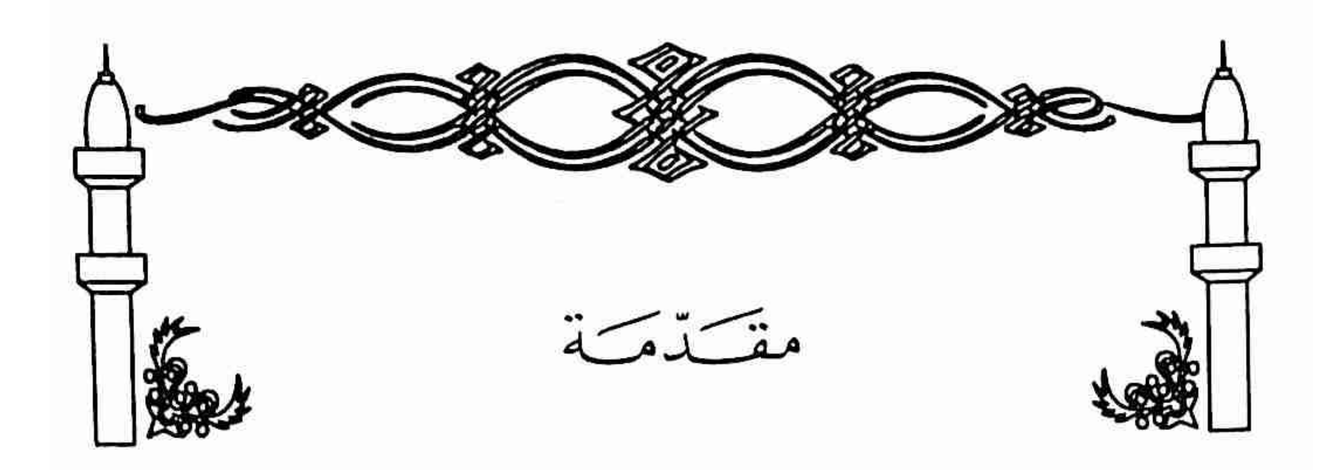
روِّحِ القلب بذِكْرِ الطُّرَفِ   فإنّ ذلك صنيعُ السلفِ
[سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم]

فاستوجب ابنُنا شيخُ الفتيان وفتى الشيوخ عادل باناعمة «ثناءنا الجميل» على صنيعه الفريد، وفريده البديع.

ولهذا نحثُّهُ على متابعة طريقه، فهو طريق صعب المرتقى إلا أنه محمود المغبّةِ، ثمرته حلوة المذاق، وسياقه خير سياق، داعياً له بالتوفيق ومنوهاً بمجهوده في هذه الرسالة.

والله تعالى ولي التوفيق





مقدّمة

الحمد لله حمْداً لا انقطاع لراتبِهِ، ولا إقلاعَ لسحائبِهِ، بَسَط على عباده عوارف المنن، وصرف عنهم غوائل الفتن، قدَّرَ فهدى، وأعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى، جعل العلم إلى جناته سبيلاً، وإلى مرضاته دليلاً.

لك الحمد يا ربِّ حمداً كثيراً، جلائلُ نعماك ليست تُعَدّ، وما لجميل عطائك حدّ.

وأنزلتَ هذا الكتاب المجيدا   مثانيَ يغزو الفضاء البعيدا
على لحنه العَذْب تهمي الدّموع   ونورُ المليك يعمّ الوجودا
ويعلو ولا شيء يعلو عليه   يجوب العصور ويبقى جديدا[1]

وخير الصلاة على من أتى، يردّ عن الكون ليلاً عتا، فَهَدَّ بقرآن رب العباد، بناء ضلال وصرح فساد، فكان اعتلاءٌ وكان ارتقاء، وكان صباح جميل الضياء.

اللّهم إني أعوذ بك من العِيّ والحصر، كما أعوذ بك من السلاطة والهذَر، وأعوذ بك من التكلّف لما لا أُحسن، كما أعوذُ بك من العُجب بما أُحسن.

---

(١) ديوان غريب الديار للدكتور عبدالرحمن بارود ص: ٥٢.

أعذني ربّ من حَصَرٍ وعيٍّ ومن نفس أعالجها علاجا
ومن عُجْبٍ أتيه به غروراً وخوف يملأ النفس اختلاجا

أما بعد:

فهذه الرسالة باكورة سلسلة من الرسائل اختطّت لنفسها هدفاً واضحاً، وعزمت على القيام برسالة دعوية تربوية جليلة.

وبيانُ ذلك أن كل ذي بصيرة يدرك ما تعانيه اللغة العربية في عصرنا من غربة وجفوة جعلتها تقاسي العقوق والجفاء من أبنائها وأصدقائها، بَلْهَ أعدائها والمتربّصين بها يريدون الشرّ والأذى، حتى أصبحت غريبةَ الوجه واليد واللسان وهي بين أهليها وبنيها، وحتى صدق فيها قول من قال:

من صديقي صرختُ لا من عدوّي ومن الأصدقاء أعدى الأعادي
أصدقائي يسمّمون جروحي منذ قرنٍ ويحرقون حصادي
أصدقائي إن زوّدوني بشيء زوّدوني بحفنة من رمادِ!!![1]

نعم، وكم من رماد ذُرَّ في عين هذه اللغة المسكينة! وكم من طعنة جحود مسمّمة وُجِّهت إلى قلبها! ولولا قوّةٌ كامنةٌ في كتاب الله، ومِنَّةٌ منه جعلت هذه اللغة لغةَ الإسلام لاندثرت كما اندثرت لغاتٌ أخرُ عقَّها بنوها وما درَوا أنهم إنما عقّوا أنفسهم، حتى إذا ذهبتْ ريحُها، وانطمست معالمها أدركوا ـ ولات حين إدراك ـ أنهم حفروا قبورهم بأيديهم، وكانوا كالباحثة عن الموت بظلفها.

(١) ديوان غريب الديار للدكتور عبدالرحمن بارود: ٧١.

وأحسب أنّ من أسباب هذه الغربة التي تعانيها لغتنا الحبيبة أنّ فِئاماً من رجالها وسَدَنتها لم يدركوا حقيقة واجبهم الذي ينبغي أن يقوموا به تجاه هذه البليّة، وظنّ كثير من أولئك أن الأبحاث المتخصصة، والفصول المحررة، والمحاضرات المتعمقة، والمؤتمرات والندوات هي التي ستحلّ المشكلة، وتبوّئ العربية عرشها اللائق بها، وغفَل هؤلاء عن جوهر المشكلة، وعن حقيقة الداء.

ليست مشكلة العربية مع أبنائها اليوم في قلة الدراسات، ولا ندرة البحوث، ولا ضآلة أعدادِ المؤتمرات والندوات، فقد شهدنا من كلّ ذلك الألوف المؤلفة، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في الحاجز النفسي السميك الذي يفصل بين قلوب عامّة الناس - أعني جمهورَهم - وبين هذه اللغة. **ذلك الشعور الذي يخالطهم بصعوبة العربيّة وجفائها، وبأنها كيان غريب عنهم هو الداء الحقيقي والعلّة القاتلة**، ولو أنّ رجال اللغة صرفوا هممهم إلى هَدْم هذه الحواجز، وجعلوا من أقلامهم وأصواتهم معاول تحطِمُ هَذه السدود لرجوت أن يكون من وراء ذلك خير كثير.

ومن أجل هذا توجهت الهمة إلى إعداد سلسلة من الرسائل الأدبيّة تعالجُ قضايا أدبيّةً عامة، وتنزِعُ منزِعَ الشمول والترسّل والسّهولة في طرحها وعرضها، وتذهب مذهب الانتخاب لجواهر الأدب وغرره وعرضها على أولئك الذين قرّروا مقاطعة لغتهم وآدابها؛ لأنّ التجربة قد دلت على أنّ كثرة سماع متَخَيَّرِ الأدب وجيّدِهِ تورث في القلوب ميلاً إليه، وإصغاءً له، وحبّاً لتحصيله، وقد تفطّن الشيخ الجليل الأستاذ علي الطنطاوي - رحمه الله - لهذا وجرَّبَه، قال - رحمه الله -: «ولقد جرَّبْتُ ذلك بالفعل في

الصفوف العلميّة التي أدرّس فيها، فكان الطلاب معرضين عن الأدب كلّ الإعراض، فما زلت بهم، أقرأ عليهم أجمل الآثار الأدبية، وأهزّ في نفوسهم حسّ الجمال، ومثوى العاطفة، حتى غدوا وهم منصرفون إلى الأدب، يدرسونه وينشؤون فيه»[١].

وقد جربت أنا على قلة بضاعتي وهزال زادي شيئاً من ذلك في محاضراتي الدراسية، فقد كنت في بعض الأحيان أصدّر المحاضرة بطرفة أدبية أو قصيدة منتقاة أو قصّة شاعر فأجد لذلك من الأصداء الشيء العجب، حتى من أولئك الذين يرسبون آخر الفصل في المادة! ومرّة دعيت إلى إلقاء أمسية أدبية في مخيم دعويٍّ أقيم في عيد الفطر يحضره يوميّاً قرابة خمسة آلاف شخص فتحدثت شيئاً يسيراً عن الشعر وأثره في أمة العرب، ورويت شيئاً من الطّرائف وبعضاً من الأقاصيص، فكان لذلك - على قلة الاحتشاد له وضعفه في ذاته - أثرٌ كبيرٌ واستحسانٌ مفرط، وليس معنى هذا أني جئت بما لم تأت به الأوائل، بل كل ما في الأمر أن الناس قلَّ أن يجدوا من يخاطبهم بمثل هذا الخطاب، ولو قام به من هو أقدر مني وأوسع علماً وأفصح لساناً لكان أثرُهُ أكبرَ وأعظمَ.

فقد بان جليّاً إذن أن ما تهدف إليه هذه الرسالة وأخواتها إنما هو قَرْعُ القلوب بمتخيّر الشعر والنثر، وبديع الأدب الموروث، ليفعل ذلك فعله في النفوس المعرضة فيستميلَها، وفي القلوب المدبرة فيقبلَ بها، فيكون من ذلك تجديدُ الصّلة بين جيلنا وأدبه الذي استدبره ظهرياً.

---

(١) فكر ومباحث: ١٥١.

ومقتضى ما سبق أن هذه السلسلة لن تنحو منحىً أكاديمياً تحليلياً. . وما أدّعي لنفسي القدرة على هذا حتى لو أردته، ومن ثم فأنا أعتذر ابتداءً إلى من كان هذا قصده، وإليه تشوّفه.

وإنّما طابَعُ هذه السلسلة ـ كما أسلفتُ ـ هو الانتقاءُ والتخيُّرُ وحسن العرض، وهي موجّهة إلى كل من نطق لسانُهُ بالعربيّة، واستطاع أن يقرأ بها، فلا أخصّ بها فئة دون فئة، ولا شريحةً دون أخرى، ولا طبقة فكريّة دون غيرها. إنّها موجّهة للأستاذ في مدرسته، وللعامل في معمله، وللطالب في فصله، وللتّاجر في سوقه، وللموظّف في مكتبه، وللمرأة في خِدْرِها، فكلٌّ أولئك مدعوّون إلى تجديد الصّلة بلغتهم، وتعميق الروابط بأدبهم. وإذا أفلحت هذه السلسلة في تحقيق هذا المراد، واستطاعت أن تُسهم في جَعْلِ الأدب العربيّ الصافي النقيّ زاداً يوميّاً للنّاس لا يستغنون عنه كما لا يستغنون عن الهواء والخبز فحسبها ذلك شرفاً.

وإنّي راغبٌ إلى كلِّ من حَمَلَ همّ العربيّة، وأرّقه واقعها، أنْ يتحوّل من الشّكوى إلى العمل، وأن يُسهم بما استطاع في دفع غربة لغة القرآن، وقليلٌ على قليلٍ يخرج منه الكثير بإذن الله.

اليوم شيء وغداً مثلُهُ   من درر العلم التي تُلْتَقطْ
يحصّل المرء بها حكمةً   وإنّما السّيلُ اجتماع النّقطْ

وإنّني أدعو أرباب الدراسات العليا العربيّة أن يخرجوا قليلاً من صومعتهم ودقائق أبحاثهم، وأنْ يسعَوْا إلى إحياء العربيّة في قلوب الناس، أن يلتفتوا إلى تلك الجماهير الضخمة السارحة

بعيداً عن لغتها فيعيدوها برفق ولطْفٍ وتأنٍّ إلى رياض اللغة والأدب.

أيها السادة.. يا مدرّسي العربيّة في المدارس والجامعات، ويا أيّها الأدباء والشعراء والكتّاب، ويا كلَّ غيورٍ على لغة القرآن.. ثمّت عملٌ كبير يجب أن يعمل، وجهد ضخم ينبغي أن يبذل حتّى نرى آمالنا واقعا حيّا معاشاً.. فأين من يشمّر عن ساعده، ويمدُّ يد العزم، ويقول: أنا لها؟

وفي ختام هذه المقدمة لا يفوتني أن أوجّه الشكر الجزيل لمعالي الشيخ الجليل العلاّمة الدكتور عبدالله ابن الشيخ المحفوظ بن بيّه، لتفضّله بقراءة الكتاب والتقديم له، وقد أفاض عليّ هذا الإمامُ العالمُ العابدُ من جليل إحسانِهِ، وشريف علمه، وسَنيِّ تواضعِهِ، ما لا أملك له كِفاءً إلا الدّعاء له بطول العمر وحُسن العمل وشرف الخاتمةِ.

وأتوجّه بالشكر الجزيل كذلك لفضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن فهد العودة الذي تفضّل بقراءة مسوّدة الكتاب، فأبى له كريمُ خلقِهِ، وجميلُ تواضعِهِ، إلا أنْ يبعث إليّ بخطابٍ رقيقٍ ضَمَّنَهُ ثناءهُ وإشادتهُ، ومما جاء في خطابِهِ: «كانت قراءة كتابكم متعةً تفوق الوصف، فقد أبدعتَ في عنوانِهِ الشيّق، ثم حشوته بالتعليلات الصائبةِ، والأبياتِ الفريدةِ، والطّرف النّادرةِ، والوصايا الجامعةِ، فمن قرأه ـ ولابدّ ـ ستمتلئ نفسُهُ رغبةً في الأدبِ، وشوقاً إليه، وهذا يشحذ العقول بالمعاني الراقيةِ، والنفوس بالأخلاق السامية.

أرجو ألا يطول حبس الكتابِ عن طالبيه، ولم أجد ما

ألاحظ عليه، فلست أدري أهو شغفي بالكتابِ وانغماسي بفصولِهِ، أم لأنّك حررّتَهُ ولم تُبقِ لمُتَزَيِّدٍ مجالاً، أم هما معاً».
اهـ.

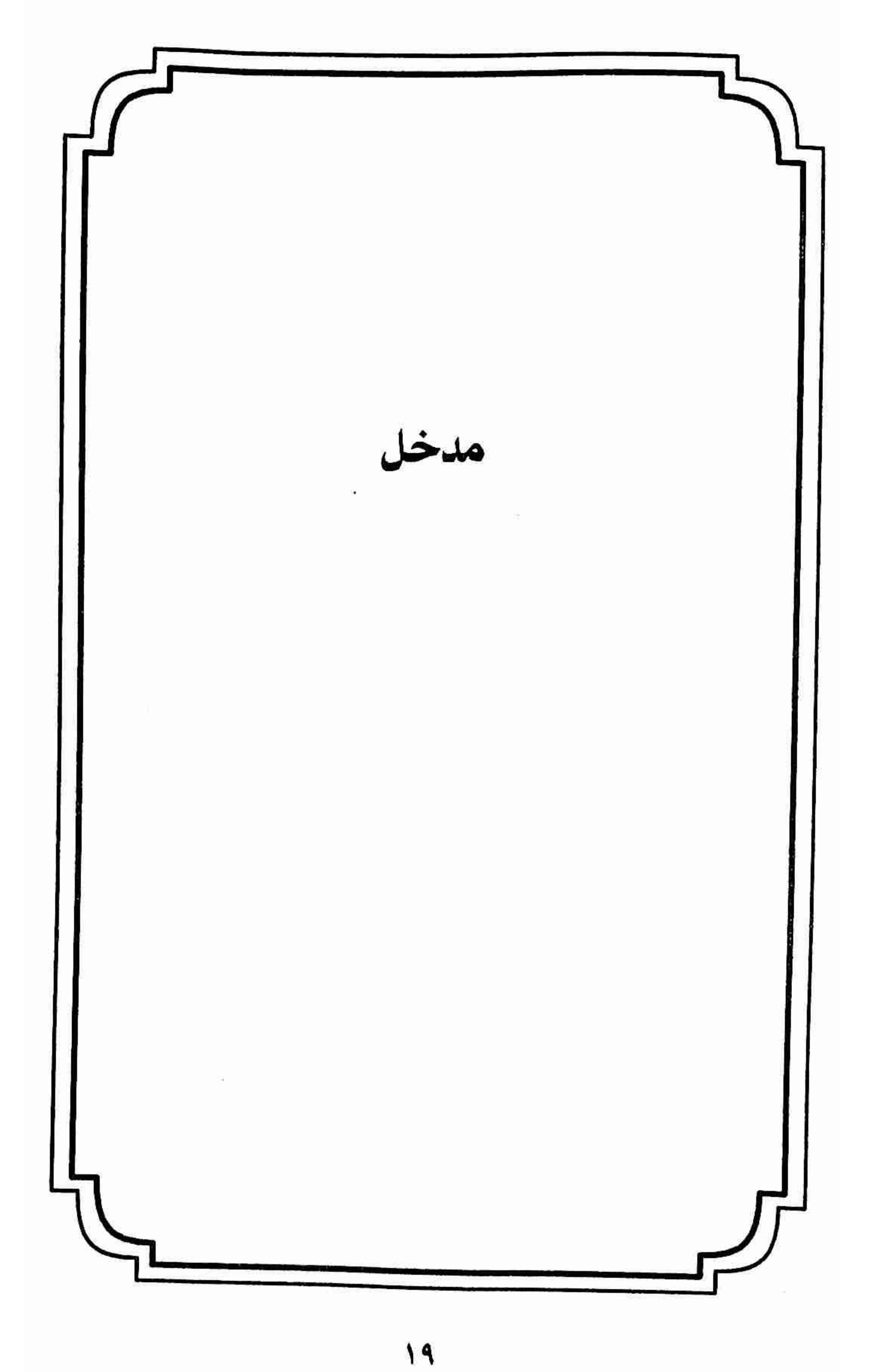
ولله أخلاق الكبارِ الذين يشجّعون تلاميذهم، ويسدّدون مسيرةَ أبنائهم.

جعلني الله خيراً مما يظنّون، وغفر لي ما لا يعلمون.

والحمد لله أولاً وآخراً.

١٤٢٥/١/١هـ





مدخل



مفهوم الأدب

الأدب الذي أعنيه هنا هو كلُّ ما أعان المرء على أن يعبّر عن مكنوناته وخلجات نفسه تعبيراً بيّناً واضحاً يأخذ بأطراف الحسن، ويتزيّن بحلى الفصاحة.

فيدخلُ فيه الشّعر وروايتُهُ، والخطب وإلقاؤها، والنصوص النثرية البليغة والرياضةُ بها، وكذلك ما لابد منه لاستقامة اللسان وسَداد التعبير من مسائل النحو والصّرف والاشتقاق والمعاجم والدلالات إلى آخر ما هنالك.

وهذا التوسّع في مفهوم الأدب ليس بِدْعاً من القول. بل هو الأصل الذي سبق المعنى التخصّصيّ الذي عرف بعد ذلك.

وقد بيّن الرافعي ـ رحمه الله ـ في كتابه الفريد (تاريخ آداب العرب)[1] أن هذه الكلمة مرت في دورة حياتها بثلاث مراحل:

كانت في الأولى منها بمعنى الاستواء النفسي الذي ينطوي فيه وزن الأخلاق وتقويم الطبّاع، كقوله صلّى الله عليه وسلم:

---

(١) ١/٣١ ـ ٣٧.

«**أدّبني ربي فأحسن تأديبي**»[1]. وإنما اشتُقَّ هذا المعنى من معنى حسّيّ هو (الأدَب) بمعنى: الدعوة إلى الطعام، ومنه قولهم: أدبَ الرجلُ القومَ يأدِبُهم، أي: أقام لهم مأدُبةً. وسِرُّ ذلك أنّ القِرى[2] كان عندهم من أعظم المفاخر، وأشرف الطّباع، فتوسعوا في الكلمة الدالة عليه حتى صارت تدل على استواء الأخلاق وكمالها.

ثم صارت الكلمةُ إلى دَوْرِها الثاني عبر المؤدبين - وهم معلّمو أولاد الخلفاء -، وقد كان هؤلاء يعلمون أولادَ الخلفاء الأخلاقَ وحُسنَ الطّباع (أي: الأدب)، ويعلمونهم كذلك سائر العلوم؛ فاتسعت الكلمة لتدلّ على العلم، فصار الأدب معناه الأخذُ من كل فنٍّ وعلم بطرف، وصارت كل العلوم داخلة في حَدِّهِ، ومعزوّةً إليه، حتى إذا تكاثرت العلوم وتشعّبت اختص لفظ الأدب بعلوم العربية، فكان النحو أدباً، والصرف أدباً، وعلم الشعر أدباً وهكذا.

ولما تغازرت علوم العربية وكثرت، واحتيج إلى الفصل صارت الكلمة إلى دَوْرِها الثالث، فانفرد به الشعراء والكتاب، وصار الأدب عَلَماً على الكلام البليغ روايةً ودراسةً. وهذا المعنى هو ما يتبادر إلى أذهاننا اليوم عند إطلاق كلمة الأدب.

وأنا إنما أريد من كلمة الأدب في هذه الرسالةِ دَوْرَها الثاني

---

(١) قال الألبانيّ في السلسلة الضعيفة ١/١٠١: «قال ابن تيميّة: معناه صحيح، ولكن لا يعرف له إسنادٌ ثابت. وأيده السخاوي والسيوطي فراجع كشف الخفاء ١/ ٧٠».

(٢) القِرى: طعامُ الضّيف.

الذي كانت فيه عَلَماً على علوم العربية وفنونها المتنوعة، ولست أريد من هذه الكثرة الكاثرة من العلوم إلا القَدْرَ الذي تجودُ به القريحة، ويفْصُحُ به اللسان، وتُخْصِبُ به الكلمات، فيكون خطيبٌ أبلغَ من خطيب، وكاتبٌ أحسنَ من كاتب، وشاعرٌ أبرعَ من شاعر. ولا غرو في التركيز على هذا الجانب الأدائيّ فقد قال ابن خلدون في حَدِّ الأدب: «هذا العلم لا موضوع له يُنْظَرُ في إثبات عوارضه أو نفيها، **وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرتُهُ**، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة... ثم إنهم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا: الأدبُ هو حفظ أشعارِ العرب وأخبارِها والأخذ من كل علم بطرف»[1].

وهذا ما أردتُهُ بالأدب، ولا مشاحّة في الاصطلاح بعد فهم المعنى.



(١) مقدمة ابن خلدون: ٥٥٣.



شرفُ الأدب ومنزلته

الأدب بمعناه الذي أسلفت له من الشرف والمنزلة حظٌّ وافرٌ وشأنٌ ظاهر، دلّتْ على ذلك أقاويلُ الأئمة والحكماء، وعبارات السلف المتقدّمين.

فقد كتب عمرُ إلى أبي موسى رضي الله عنهما: أما بعد، فتفقّهوا في السنّة، وتفقّهوا في العربية[1]، وروي عنه قوله: رحم الله امرءاً أصلح لسانه[2].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الشّعر ميزان القول، ورواه بعضهم: ميزان القوم[3].

وقال أُبيّ بن كعبٍ رضي الله عنه: تعلّموا العربيّةَ كما تَعَلَّمون حِفظ القرآن[4].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٦/١١٦ برقم: ٢٩٩١٤.

(٢) بهجة المجالس: ١/ ٦٤، وأورده صاحب كشف الخفاء مرفوعاً بسندٍ ضعيف ١/ ٤٠٠.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٢٨.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٦/١١٦ برقم: ٢٩٩١٥.

وقال ابن سيرين: ما رأيت على رجل أحسن من فصاحة، ولا على امرأة أحسن من شحم[1].

وقال شبيب بن شبّةَ: اطلبوا الأدب فإنه أداةٌ للعقل، دليلٌ على المروءة، صاحبٌ في الغربة، مؤنس في الوحشة، حلية في المجلس[2].

وقال أيضاً: اطلب الأدب فإنه دليل على المروءة، وزيادة في العقل، وصاحب في الغربة، وصِلةٌ في المجلس[3].

وقال الخليل: من لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جمالاً[4].

وحدَّث أبو صالح الهرويّ قال: كان عبد الله بن المبارك يقول: أنفقتُ في الحديث أربعين ألفاً، وفي الأدب ستين ألفاً، وليت ما أنفقتُهُ في الحديث أنفقتُهُ في الأدب. قيل له: كيف؟ قال: لأنّ النّصارى كفروا بتشديدة واحدة خفّفوها. قال تعالى: يا عيسى إني ولَّدْتُك من عذراء بتول. فقالت النصارى: وَلَدْتُك![5].

---

(١) انظر: عيون الأخبار: ٢/ ١٥٥، وبهجة المجالس: ١/ ٥٦.

(٢) شرح مقامات الحريري: ٤/ ٢٨٧.

(٣) البيان والتبيين: ١/ ٣٥٢.

(٤) شرح مقامات الحريري: ٤/ ٢٨٧.

(٥) معجم الأدباء: ١/ ٧٢، وقد رويتُ الخبر لدلالتِهِ، وإلا فإنّ الإنجيل لم ينزل بالعربيّة. وإنْ كان قد رُوي عن سفيان الثوريّ قولُهُ: لم ينزل وحيٌ إلا بالعربيّةِ، ثم ترجم كل نبيّ لقومه [تفسير ابن كثير ٣/ ٣٣٦]، وأورده الطبرانيّ في المعجم الأوسط برقم ٤٦٣٥ مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ، «وفيه سليمان بن أرقم وهو ضعيف» [مجمع الزوائد ١٠/ ٥٣].

وقال يونس بن حبيب: ليس لعَيِيٍّ مروءةٌ، ولا لمنقوص البيانِ بهاءٌ، ولو حكَّ بيافوخِهِ أعنان السماء[1].

وقال بُزُرْجُمْهر: من كثر أدبُهُ كثر شرفه وإن كان قبل وضيعاً، وبعُدَ صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً، وكثرت الحاجة إليه وإن كان فقيراً[2].

وقال أرسطاطاليس: ليت شعري، أيُّ شيء فاتَ من أدرك الأدب؟ وأيَّ شيء أدرك من فاته الأدبُ؟[3]

ومن لطيف الشعر في هذا المعنى قول بعضهم:

ما وهب اللَّهُ لامرئٍ هبةً ... أحسنَ من عقله ومن أدبِهْ
هما جمال الفتى فإن فُقِدا ... ففَقْدُهُ للحياة أجمل بهْ[4]

وقال آخر:

أرى العلم نوراً والتأدّبَ حِلْيةً ... فخذ منهما في رغبةٍ بنصيبِ
وليس يتمُّ العلم في الناس للفتى ... إذا لم يكن في علمه بأديبِ[5]

وقال غيره:

كم من خسيسٍ وضيعِ القَدْرِ ليس له ... في العز أصل ولا ينمى إلى حسبِ
قد صار بالأدب المحمود ذا شرف ... عال وذا حسب محض وذا نسبِ[6]

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٧٧. وأعنانُ السماء: نواحيها.
(٢) شرح مقامات الحريري ٤/ ٢٨٨.
(٣) معجم الأدباء: ١/ ٧٧.
(٤) شرح مقامات الحريري: ٤/ ٢٨٨
(٥) معجم الأدباء: ١/ ٧٠.
(٦) معجم الأدباء: ١/ ٧٤.

ومما ورد كذلك في شرف الأدب وتعلمه ما حدّث به يحيى بن عتيق قال: سألت الحسن: فقلت: يا أبا سعيد الرجل يتعلّم العربية يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته، قال الحسن: يا بنيّ تعلّمْها فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك[1].

وقال ثعلب: سمعت محمد بن سلام يقول: ما أحدث الناس مروءة أفضل من طلب النحو[2].

وقال ابن شبرمة: ما لبس الرجال لباساً أجمل من العربية[3].

وقال أيضاً: إذا سرَّكَ أن تعظُم في عين من كنت في عينه صغيراً، ويصغر في عينك من كان في عينك عظيماً فتعلّم العربية، فإنها تجرّئك على المنطق، وتدنيك من السلطان[4].

وبلغ من إنكار قتادة على من أهمل لسانه وضيّع بيانه أن قال: لا أسأل عن عقل رجل لم يدلَّه عقله على أن يتعلم من العربية ما يصلح به لسانه[5].

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول بعضهم يوصي

---

(١) معجم الأدباء: ١/ ٨٣.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٦٥.
(٣) تنبيه الألباب: ٤٩.
(٤) عيون الأخبار ٢/ ١٥٧.
(٥) تنبيه الألباب: ٣٠.

بنيه: يا بَنيَّ، أصلحوا ألسنتكم، فإنّ الرجل تنوبُهُ النائبة يحب أن يتجمّل، فيستعيرُ من أخيه دابته وثوبه، ولا يجد من يعيره لسانه. ويشبهُ هذا قولُ المأمون لأحد أولاده وقد سمع منه لحناً: ما على أحدكم أن يتعلّم العربيّةَ، فيُقيم بها أَوَدَهُ، ويَزِين بها مشهدَهُ، ويَفُلَّ بها حُجَجَ خصمِهِ بمُسكِتاتِ حِكَمِه، ويملكَ مجلسَ سُلْطانِهِ بظاهرِ بيانِهِ، أَوَيسرُّ أحدَكم أن يكون لسانُهُ كلسانِ عبدِهِ أو أمتِهِ، فلا يزال الدّهرَ أسيرَ كلمتِهِ[1]؟!

وكان يقال: عقل الرجل مدفون تحت لسانه[2]، وقالوا: المرء مخبوء تحت لسانه[3].

كفى بالمرء عيباً أنْ تراه	له وجهٌ وليس له لسانُ
وما حُسْنُ الرجال لهم بزَيْنٍ	إذا لم يُسعدِ الحسْنَ البيانُ[4]

وقال بعض الشعراء:

النّحو يُصلح من لسان الألكنِ	والمرءُ تُعْظِمُه إذا لم يلحنِ
والنّحو مِثْلُ الملح إن ألقيتَه	في كل ضدٍّ من طعامك يحسنِ
فإذا طلبتَ من العلوم أجلَّها	فأجلُّها منها مقيم الألسنِ[5]

---

(١) بهجة المجالس: : ١/ ٦٤.

(٢) عيون الأخبار ٢/. ١٦٨

(٣) بهجة المجالس: ١/ ٥٥.

(٤) عيون الأخبار ٢/ ١٦٩.

(٥) انظر: عيون الأخبار: ٢/ ١٥٧، وبهجة المجالس: ١/ ٦٦. وهذا على سبيل التسامح، وأما على الحقيقةِ فأجلُّ العلومِ ما لايتمّ دين المرء إلا به عقيدةً وعملاً.

وقال الكسائيُّ:

إنّما النّحو قياسٌ يُتّبعْ ... وبه في كلّ أمرٍ يُنتفعْ
فإذا ما أبصرَ النّحوَ الفتى ... مرَّ في المنطقِ مرّاً واتّسعْ
واتّقاه كلُّ من جالسه ... من جليسٍ ناطقٍ أو مستمعْ
وإذا لم يبصرِ النّحوَ الفتى ... هاب أن ينطقَ جُبناً وانقمعْ
يقرأُ القرآن لا يعرفُ ما ... فَعَلَ الإعرابُ فيه وصَنَعْ
يخفض الصّوتَ إذا يقرؤه ... وهو لا علمٍ له فيما اتبعْ
والذي يقرؤه عِلْماً به ... إن عراه الشّكُّ في حرفٍ رَجَعْ
ناظراً فيه وفي إعرابه ... فإذا ما عَرف الحقَّ صدعْ
أهما فيه سواءٌ عندكم؟ ... ليست السنةُ فينا كالبدعْ
وكذاك الجهل والعلم فَخُذْ ... منه ما شئتَ وما شئتَ فدعْ[1]

ومن شرف الأدب أنّ عِلْيَةَ القوم في القديم والحديث قد اشتغلوا به، وزاولوه، واتّصلوا منه بسبب، وقد نُسب شعر لأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وعثمان، وعليّ، والحسن بن علي، ومعاوية، والحسين بن علي، وحمزة بن عبد المطلب، والعباس بن عبد المطلب، وعبدالله بن عباس، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن المطلب، وعمر بن عبدالعزيز وعبدالله بن الزبير، والقاضي شريح، والشافعي. وتقول عائشة رضي الله عنها: (الشعر منه حسنٌ وقبيحٌ، خذ بالحسَنِ ودعِ القبيحَ، ولقد رويتُ من شعرِ كعبِ بن مالكٍ أشعاراً، منها القصيدةُ فيها أربعون بيتاً، ودون ذلك)[2]. وقال الشعبيّ: كان أبو بكرٍ

(١) بهجة المجالس: ١/ ٦٩.

(٢) الأدب المفرد للبخاري: ٢٩٩.

شاعراً، وكان عمر شاعراً، وكان عثمانُ شاعراً[1].

ولست أستقصي، فسيمرّ بنا في عرض الحديث شواهدُ أخرُ كثيرات على شرف الأدب وعلوّ منزلته.



(1) مصنف ابن أبي شيبة: ٢٦٠١٩.



فساد واقعنا الأدبيّ

ومع هذه المنزلة الرفيعة للأدبِ فإننا ننظر إلى واقعنا الأدبيّ اليوم فنجد من التفريط والاضطراب والفساد ما يتفطّر له القلب حزناً.

كم مِنْ شبابنا اليوم من يحسن التعبير عما في نفسه تعبيراً صحيحاً؟

كم من شبابنا اليوم مَنْ يحفظ قصيدتين أوثلاثاً فضلا عما هو أكثر من ذلك؟

كم من شبابنا اليوم مَنْ يستطيع أن يتحدث خمس دقائق من غير أن يطأ على عظام سيبويه والخليل بكثرة لحنه وخَطَلِ كلامه؟

كم مِنْ شبابنا اليوم مَنْ يستطيع أن يقرأ شعر المتنبي وأبي تمام والبحتري؟ ولستُ أقول: شعرَ امرئ القيس ولبيد والنابغة!

كم من شبابنا اليوم مَنْ يعرف الكُمَيْتَ وعَبْدَ بني الحَسْحاسِ ومروانَ بنَ أبي حفصةَ وابنَ مَيّادةَ وابن الدُّمَيْنة وغيرَهم؟

كم من شبابنا اليوم مَنْ امتدّت أيديهم إلى أُمّات كُتب الأدب كالأمالي والكامل والبيان وأدب الكاتب والأغاني وغير ذلك؟

وكما قلت: كم من شبابنا؟ فإنني أقول أيضاً: كم من شيوخنا ومدرسينا وطلبة العلم فينا؟

إنّها أسئلةٌ مُرّةٌ تكشفُ مقدار التّفريط الذي يكتنفُنا إزاء لغتنا وأدبنا.

ودعونا من هذا كله ولننظر كيف يجيب أبناؤنا وإخواننا في ورقة الامتحان، وكيف يكتبون كلاماً مُشَعَّثاً يلعنُ آخرُه أولَه وأوّلُهُ آخرَه؟!

أراد أحدهم مرة أن يروي قصة ابن أبيّ لما مرّ رسول الله ﷺ على حماره فخمّر ابنُ أُبيٍّ وجهه، فقال: يُروى أن النبّي كان فوق الحمار يمشي فمرّ على عبدالله بن أبيٍّ فقال ابن أبيٍّ: كلُّ هذا من رائحة حمارك فامش بعيداً!!

وأعرب أحدُهم (مسلماتٍ) وقد وقعَتْ فاعلاً فقال: فاعل مرفوع بالضّمّة وعلامة رفعه الواو لأنه جمعُ مذكّرٍ سالم!!

وقس على ذلك من الأوابد ما شئت!!

وشرٌّ من هذا ما تزلّ به ألسنةُ المذيعين والمذيعاتِ وهم في موضعِ القدوةِ، وقد قرأ أحدهم حديث النبيّ ﷺ في الحثّ على الاعتدالِ في الطعام، فرواه هكذا: «**فثلُثٌ لطعامِه، وثلُثٌ لشرابه، وثلُثٌ لنَفْسِهِ**» بإسكان الفاء!

وتلا مذيعٌ آخر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ فلفظها: (جَبَلاً)!!

فانظر إلى أين صرنا؟!!

ولقد وصف الأديب الكبير الزيّات صاحبُ الرّسالة واقع

زمانه فبكى وأبكى فكيف بنا؟ قال ـ رحمه الله ـ: «لا المعلم على الجملة صادق الجهاد فيما يعطي، ولا المتعلم على العموم حَسَنُ الاستعداد لما يأخذ»[1]، و«كلُّ شيء يبعث على التشاؤم.. منهجٌ تطبيقيّ يكاد يخلو من القواعد، كما كان المنهج السابق نظرياً يكاد يخلو من التطبيق! وتعليمٌ سطحيّ مقتضب لا هدف له إلا اجتياز الامتحان بأية وسيلة، فالمطولات تختصر، والمختصرات تختزل، فلا يبقى بعد ذلك في ذاكرة الطالب إلا رموز على معان عائمة غائمة لا هي مستقرّةٌ ولا هي واضحةٌ.. فإذا ما تخرّجوا عادوا كما بدأهم الله أميين لا يقرؤون إذا قرؤوا إلا السهل، ولا يطلبون هذا السهل إلا في قصّة عامية تخدّر الشعور، أو مجلّة فكاهية تُنَبِّهُ الشهوة، حتى نشأ من إفراطهم في هذا الطّلَب إفراطُ الكتّاب الخِفاف في عَرْض الأدب اللذيذ الذي لا ينفع، أو الأدب الماجن الذي لا يرفع، ذلكم إلى طغيان الأدب الأوروبيّ بمذاهبه ونزعاته وترّهاته على عقول الناشئين.. ففتنهم عن أدبهم، وصرفهم عن تاريخهم»[2].

وبمثل هذا الأسى والأسف روى الطنطاويُّ قصّةً تبيّن كيف تغلغل الفساد والضعف إلى طلبة العربية المختصين بها وبدرسها! قال ـ رحمه الله ـ: «مررت مرة بحلقة فيها نَفَرٌ فهمت من كلامهم أنّهم من طلبة العربيّة والأدب في المدارس العالية، فقعدت قريباً منهم أستمع إليهم، وكان واحد منهم يقرأ في كتاب، فما رأيتُهُ سَلِمَتْ له خمسةُ أسطر متتابعات! وما مرّ على خمسة أسطر إلا

---

(١) وحي الرسالة: ٣/ ٢٠٧

(٢) وحي الرسالة: ٣/ ٢٠٩

رفع فيها منخفضاً، وخفض مرتفعاً، وحرّف الكلم عن مواضعها، وأزالها عن منازلها، ولم يدَعْ لغويّاً ولا نحوياً ولا عالماً بالعربيّة من لدن أبي عمرو إلى الأشمونيّ إلا نبش قبره، وبعثر عظمه، ولعن بجهله أباه وأمّه. أمّا الطلاب الحاضرون فكان منهم من يتنبّه للّحْنَةِ الظاهرة فيردّه عنها، ويغفل عن الخفيّة، وسائرهم في عمىً عن ظاهرها وخفيّها، ودقيقها وجليلها، فضاق صدري حتى خشيت أن يتفجّر بغضبة للعربية لا أدري ما عاقبتها، فحملت نعلي وخرجت هارباً أسعى»[1].

وحالنا اليوم ـ في قلة المبالاة بالأدب والاحتفال به ـ كحال ذلك النبطي من أهل تِيْرَى[2] وقد لقي الفرزدقَ فقال له: أنت الفرزدق الشاعر؟ فقال: نعم. قال: إنْ هجوتَني تموت زوجتي عيشونة؟ قال: لا. قال: فتموت حمارتي؟ قال: لا. قال: فمن رجلي إلى عنقي في حِرِ أمّك. قال: ويلك فلم تركت رأسك؟ قال: حتى أنظر ما تصنع[3]!!

على أن هذه الشكوى من زهد النّاس في الأدب وأهله قديمة، فقد قال ابن الروميّ:

لقد ذهب الشعر والقائلوه	وقلّ البصير بأبصارهم
فلو أن محتسباً عادلا	على الشعراء وأشعارهم
لأفْلَتَ من يده عُشْرُهم	ودرَّرَ تسعة أعشارِهم[4]

(١) في سبيل الإصلاح: ٣٣.

(٢) بلدة بالأهواز.

(٣) سرح العيون: ٣٩٣

(٤) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٦٢.

ومعنى دَرَّرهم أي: ضَربهم بالدِّرَّةِ، وهي العصا التي يَضْربُ بها السلطان.

وقال ابن كُناسةَ الشّاعر: كنتُ أتكلّم بكلام فلو لم يجد سامعه إلا القطن الذي في وجه أمه في القبر لتغلغل إليه حتى يخرجَه ويُهديَه إلي، وأنا اليوم أتحدث بذلك الحديث بعينه فما أفرغ منه حتى أهيئ له اعتذاري[1]!

ولعل هذا الزهد العام في الأدب هو الذي ولَّد مصطلح (حرفة الأدب)، حيث كان الأوائل يزعمون أنه ما اجتمع أدب وغنى إلا فيما ندر..

قال أبو إسحاق الصابي:

قد كنت أعجب من مالي وكثرته
وكيف تغفل عنه حرفة الأدبِ
حتى انثنت وهي كالغضبى تلاحقني
شَزْراً فلم تبق لي شيئاً من النَّشَبِ[2]
واستيقنت أنها كانت على غلط
فاستدركته وأفضت بي إلى الحَرَبِ[3]
الضَّبُّ والنُّونُ قد يرجى اجتماعهما
وليس يرجى اجتماع المال والأدبِ[4]

---

(١) شرح مقامات الحريري: ٥/٣٣٨

(٢) النشبُ: المالُ.

(٣) حَرَبَهُ حَرَباً: سلب مالَهُ، فهو محروبٌ.

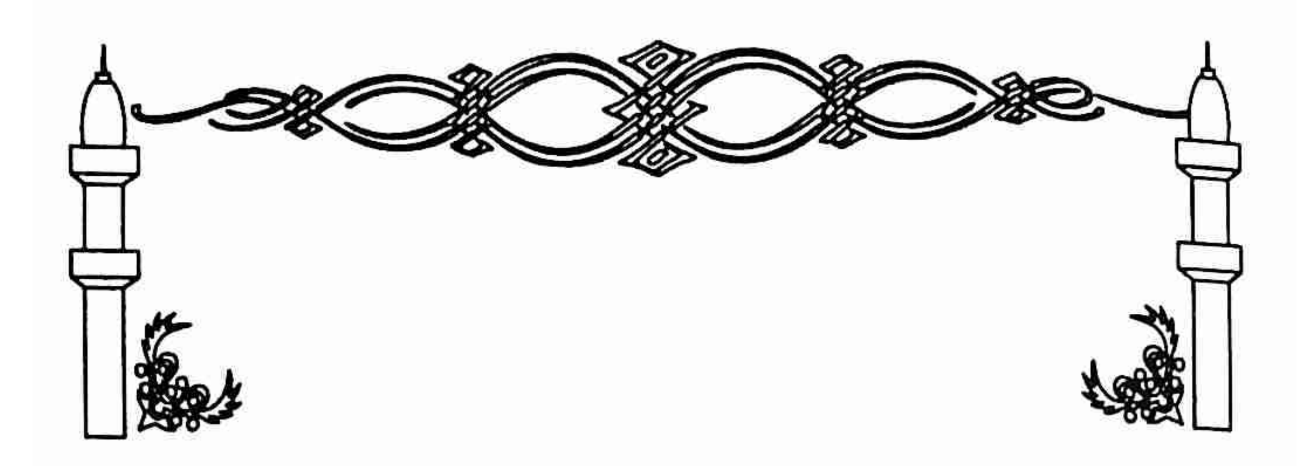
(٤) النّون هو الحوت، وانظر الأبيات في شرح مقامات الحريري: ٢/١٣٩.

فإذا كان الأمر على هذه الحالة... أفلا يحق لي ولغيري أن ينادي بأعلى صوته: قليلاً من الأدب أيّها النّاس؟!





لماذا ندعو إلى الأدب؟



إنّ الدعوة إلى الأدب واللغة والبيان كثيراً ما تُواجه بأسئلة على شاكلة: ما الجدوى؟ ما الفائدة؟ ولماذا لا تُغلقُ كلياتُ اللغة وأقسامُها أصلاً؟ إننا في زمن علم وحضارة مادية ولسنا في زمن أقوال وتحبيرات، وزخرفٍ لفظيٍّ لا يسمن ولا يغني من جوع. ويكثرُ في هذا السياقِ الاحتجاجُ بسوق العمل، واحتياجات الشركات، وطبيعة التأهيل الذي تحتاجه الوظائف، إلى آخر ما هنالك من حجج يقذف بها المعترضون في وجه كلّ من نادى بضرورة العناية بالعربية وآدابها.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ هذه النظرة (النفعيّة) للعلوم، وقياس جدواها بمعيار (السوق) و(الوظائف) هي نظرةٌ غربيّة ماديّةٌ تُغْفِلُ أصلاً إسلاميّاً عظيماً هو طلب العلم لوجهِ الله، والإخلاصُ في التحصيلِ، واتخاذُ العلمِ سبيلاً إلى مرضاة المولى سبحانه، ولو ذهبنا نقيس العلوم بهذا المعيار وحده لوجدنا أنفسنا بعد زمنٍ نستغني عن التعليم الشرعيّ، وننادي بغلق المعاهد العلمية والجامعات الشرعيّة بحجّة أنّ خريجيها لم يعد لهم مكانٌ في السلّم الوظيفيّ!

إنّ حضارتنا الإسلاميّة هي حضارةُ مادّةٍ وروحٍ، وعليهِ فإنّ

العلمَ فيها ليس محصوراً فيما يعودُ بنفعٍ عاجلٍ في هذه الدّنيا، وإنّما هو يمتدُّ ليشمل ما يقيمُ الدين، ويصحّح اللسان، ويزكّي النفس، ويسمو بالروح.

ومع التأكيد على ما سبق فإنني سأبسط القول في تتبُّعِ الجوانب الكثيرة التي تبيّن حاجتنا إلى الأدب وأهميته وضرورته لنا باعتبارنا أمة رسالة ودين، وأمّة ذوق وجمالٍ، وأمة حضارة ودنيا كذلك.





١ ـ ندعو إلى الأدب
لأنّ الإسلام دعا إليه وحضّ عليه

وجوانب الاهتمام الإسلاميّ بالأدب كثيرة منها:

١ ـ الثناء على الأدب والشعر:

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح، ويقول رسول الله ﷺ: «**إنّ روح القدس مع حسّان ما نافح عن رسول الله ﷺ**» [أبو داود: ٥٠١٥، والترمذي: ٢٨٤٦ وقال: حسنٌ صحيح].

وعن البراء رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال لحسّان: «**اهجهم ـ أو قال: هاجهم ـ وجبريلُ معك**» [البخاري: ٦١٥٣، وفي رواية أخرى عند البخاريّ أيضاً [٤١٢٤] عن البراء بن عازبٍ قال: قال رسول الله ﷺ يوم قريظة لحسّان بن ثابت: «**اهج المشركين، فإنّ جبريل معك**».

ومن ثناء النبيّ ﷺ على جيّد الشعر ما جاء عند مسلم

[٢٢٥٦] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**أصدقُ بيتٍ قالته الشعراء: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ**».

ومنه قوله ﷺ لما أتاه أعرابيّ فتكلّم بكلام بيِّنٍ: «**إنّ من البيان لسحراً، وإنّ من الشعر لحكمة**» [أبو داود: ٥٠١١، وهو في الأدب المفرد: ٨٧٢].

قال أبو عليّ اللؤلؤيّ: كأنّ المعنى أن يبلغ من بيانِهِ أنْ يمدحَ الإنسانَ فيصدُقَ فيه حتى يصرفَ القلوب إلى قوله، ثم يذمَّهُ فيصدقَ فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر، فكأنّه سَحَر السامعين بذلك[١].

٢ ـ الحث على استماعه وإنشاده:

عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: رَدِفْتُ رسول الله ﷺ يوماً فقال: «**هل معك من شعر أمية بن أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟**»، قلت: نعم. قال: «**هيه**»، فأنشدته بيتاً فقال: «**هيه**»، ثم أنشدته بيتاً فقال: «**هيه**» حتى أنشدته مائة بيت. [مسلم: ٢٢٥٥].

«ومقصود الحديث أنّ النبيّ ﷺ استحسن شعر أميّة واستزاد من إنشاده لما فيه من الإقرار بالوحدانيّة والبعث. ففيه جواز إنشاد الشّعر الذي لا فحش فيه وسماعه، سواء شعر الجاهليّة وغيرهم»[٢].

---

(١) سنن أبي داود ٥/٢٧٦.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٥/١٨.

ورُوي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: مرّ الزبير بن العوّام رضي الله عنه بمجلسٍ لأصحاب النبيّ ﷺ، وحسان ينشدهم، وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره، فقال: ما لي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيْعَة؟ لقد كان يُنشدُ رسولَ الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه إذا أنشده. [مستدرك الحاكم: ٥٥٥٩، المعجم الكبير: ٣٥٨٣].

وفي مصنّف ابن أبي شيبة [٣٤٩٥٧، ٢٦٠٤٩] عن أبي سلمة قال: لم يكن أصحاب النبيّ ﷺ متخرّقين[1] ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشِّعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليّتهم، فإذا أريد أحدهم على شيءٍ من أمر دينه دارت حماليقُ عينيه كأنّه مجنون.

وعن ابن عيينة عن عبدالرحمن عن أبيه قال: كنت أجالس أصحاب رسول الله ﷺ مع أبي في المسجد، فيتناشدون الأشعار، ويذكرون حديث الجاهليّة. [المصنف: ٢٦٠٥٢].

وعن أبي خالد الوالبيّ قال: كنت أجلس مع أصحاب رسول الله ﷺ فلعلهم لا يذكرون إلا الشِّعر حتى يتفرّقوا. [مصنف ابن أبي شيبة: ٢٦٠١٨].

وقال عكرمة: كنت أسيرُ مع ابن عباسٍ ونحن منطلقون إلى عرفات، فكنتُ أُنشدُهُ الشّعر ويفتحه عليّ. [مصنف ابن أبي شيبة ٢٦٠٢٧].

---

(١) يُقال: رجلٌ متخرِّقُ السِّربالِ: أي: متشقّق الثياب. [التاج ١٣/ ١١١]. وفي رواية أخرى: منحرفين.

وعن شعبة قال: كان قتادة يستنشدني الشعر، فأقول له أنشدك بيتاً وتحدِّثني بحديثٍ. [تهذيب الآثار: **٩٩٩**].

وروى الترمذيّ [٢٨٥٠] عن جابر بن سمُرةَ قال: جالستُ النبيّ ﷺ أكثر من مئة مرّة، فكان أصحابه يتناشدون الشّعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهليّة، وهو ساكتٌ، فربّما تبسّم معهم. قال الترمذيّ: هذا حديث حسن صحيح.

وفي رواية ابن أبي شيبة [٢٦٠٥٣] قال جابر: كنّا نأتي النبي ﷺ فيجلس أحدنا حيث ينتهي، وكانوا يتذاكرون الشعر وحديث الجاهلية عند رسول الله ﷺ، فلا ينهاهم، وربما يتبسّم.

بل كان ﷺ يستمع الشّعر في المسجد الحرامِ، روى أنس رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ دخل مكّة في عمرة القضاء وعبدالله بن رواحةَ يمشي بين يديه وهو يقول:

خلّوا بني الكفّار عن سبيلِهِ ... اليومَ نضربْكم على تنزيلِهِ

ضَرْباً يزيل الهامَ عن مقيلِهِ ... ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

فقال له عمر: يا ابن رواحةَ بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله عزّ وجلّ تقول الشعر؟ قال النبيّ ﷺ: **«خلِّ عنه، فلهو أسرعُ فيهم من نضحِ النّبلِ»** [النّسائي: **٢٨٧٣**].

وعند الترمذيّ [٢٨٤٦] أنّ النبيّ ﷺ كان يضعُ لحسانَ منبراً في المسجد فيقوم عليه يهجو الكفّار.

ومرّ عمر بحسّانَ وهو ينشد في المسجد فلحَظَ إليه، فقال: قد كنتُ أنشد وفيه من هو خيرٌ منكَ، ثمّ التفت إلى أبي هريرة فقال: أسمعتَ رسول الله ﷺ يقول: **«أجب عنّي، اللهمّ أيّده**

بروح القدس»؟ قال: اللهم نعم. [مسلم: ٢٤٨٥ واللفظ له، وهو في البخاريّ: ٣٢١٢].

قال ابن حجرٍ - رحمه الله -: (وأما ما رواه ابن خزيمة في صحيحه والترمذيّ وحسّنه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن تناشد الأشعار في المساجد»، وإسناده صحيح إلى عمرو، فمَنْ يصحّح نسخته يصحِّحُهُ، وفي المعنى عدّة أحاديث لكنّ في أسانيدها مقال، فالجمع بينها وبين حديث الباب [يعني حديث إنشاد حسّان في المسجد] أن يحمل النهي على تناشد أشعار الجاهليّة والمبطلين، والمأذون فيه ما سلم من ذلك. وقيل: المنهيّ عنه ما إذا كان التناشد غالباً على المسجد حتّى يتشاغل به من فيه)[1].

٣ - توظيف الأدب:

فلم يعد الأدب في الإسلام مجرد متعة، بل صارت له مع ذلك وظائف منها:

أ - الجهاد:

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بألسنتكم وأنفسكم وأموالكم وأيديكم**» [أحمد، الفتح الرباني: ١٤/ ٧].

وعن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال:

---

(١) فتح الباري: ١/ ٥٤٩.

«إنّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نَضْحُ النَّبْل». [أحمد، الفتح الربّاني: ١٩/ ٢٧٥].

وفي مصنّف عبدالرزاق [٢٠٥٠١] عن ابن سيرينَ قال: قال رسول الله ﷺ وهو محاصِرٌ أهل الطّائف لكعب بن مالكٍ وهو إلى جنبه: «هيه!» يستنشده، فأنشده قصيدةً فيهم يقول:

قضينا من تهامة كلّ ريبٍ وخيبرَ ثمّ أجممنا السّيوفا
نخيِّرها ولو نطقت لقالت قواطعهنّ دوساً أو ثقيفا

فقال النبيّ ﷺ: **«لهنّ أسرعُ فيهم من وقْعِ النّبل»**.

ب ـ التمثّل به في الحديث والوعظ والإرشاد:

عن المقدام بن شريح عن أبيه قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: أكان رسولُ الله ﷺ يتمثّل بشيء من الشعر؟ فقالت: كان يتمثّل بشيء من شعر عبدالله بن رواحة: ويأتيكَ بالأخبار من لم تزوّدِ. [الترمذي: ٢٨٤٨ وقال: حسن صحيح، ورواه البخاريّ في الأدب المفرد: ٨٦٧].

ومن المعلوم أنّ هذا البيت لطرفة، ولكن هكذا جاءت رواية الترمذيّ، وفي رواية أحمد [الفتح الربّاني: ١٩/ ٢٧٨] تقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر [أي: استبطأه] تمثّل فيه ببيت طرفة (ويأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ).

وروى البخاريُّ [٦١٥١] عن الهيثم بن أبي سنان قال: رأيت أبا هريرة يوم جمعة يقصُّ قائماً فقال في قصصه: إنّ أخاً لكم

كان لا يقول الرفث - يعني عبدالله بن رواحة - فقال:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابَهُ   إذا انشقّ معروفٌ من الفجرِ ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا   به موقناتٌ أنّ ما قال واقعُ
يبيتُ يجافي جَنْبَهُ عن فراشِهِ   إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجعُ

قال الكرمانيُّ: في البيتِ الأوّل إشارةٌ إلى عِلْمه، وفي الثالث إلى عملِهِ، وفي الثاني إلى تكميله غيره ﷺ، فهو كامل مكمِّل[1].

وكان ابن مسعودٍ رضي الله عنه ربّما تمثّل بالبيت من الشعر مما كان في وقائع العرب [مصنّف عبدالرزّاق: ٢٠٥٠٤].

ج - شدّ العزائم وتقوية الهمم:

عن أبي إسحاق السّبيعيّ قال: قيل للبراء وأنا أسمع: أولّيْتُم مع النبيّ ﷺ يوم حنين؟ فقال: أمّا رسول الله ﷺ فلا، كانوا رماةً، فقال النبيّ ﷺ:

«أنا النبيُّ لا كَذِبْ
أنا ابن عبد المطّلبْ»

[البخاري: ٤٣١٦]

فكان ﷺ يرتجز بهذه الأبيات، ويدعو أصحابه حتى ثبت منهم معه نحو ثمانين رجلاً[2].

---

(١) فتح الباري: ١٠/٥٤٧.

(٢) انظر: فتح الباري: ٨/ ٣٠.

وعن البراء رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ ينقلُ التّرابَ يوم الخندقِ حتى أَغْمَرَ بطنَهُ ـ أو اغبرَّ بطنُهُ ـ يقول:

والله لــولا الله مــا اهــتــديــنــا
ولا تــصــدّقْــنــا ولا صــلَّــيــنــا
فــأنــزلــنْ ســكــيــنــةً عــلــيــنــا
وثَــبِّــتِ الأقــدامَ إنْ لاقــيــنــا
إنّ الألــى قــد بــغَــوْا عــلــيــنــا
فــإنْ أرادوا فــتــنــةً أَبَــيْــنــا

ويرفع بها صوته: أبينا، أبينا. [البخاري: ٤١٠٤].

د ـ الدعوةُ إلى الإسلام والدّفاع عنه:

فقد كان النبيّ ﷺ يتخذ من الخطابةِ والشعرِ وسيلتين للدعوةِ، ومخاطبةِ الوفودِ، وبيانِ سموّ الدين وشرف الرسالةِ، ترغيباً للمخاطبين في الإسلامِ ونيل شرف اتّباع الدين الحق.

وفي أخبارِ السيرةِ أنّ وفداً من تميم قدموا إلى النبيّ ﷺ بعدَ أنْ أَسَرَ عُيَيْنةُ بن حِصنٍ رضي الله عنّه أحد عشر رجلاً من رجالهم، وإحدى وعشرين امرأة من نسائهم، وثلاثين صبياً من صبيانهم، فلمّا جاؤوا باب النبيّ ﷺ نادَوا: يا محمّد اخرج إلينا، فلما خرج تعلّقوا به، ثمّ قدّموا عُطارد بن الحاجبِ فتكلّم وخطب، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيسٍ رضي الله عنه فأجابهم، ثمّ قام الزّبرقان بن بدر شاعر بني تميم مُفاخراً، فقام شاعر الإسلام حسّان فأجابه على البديهة، فلمّا فرغ حسان قال

الأقرع بن حابس: إنّ هذا الرجل لمؤتّى له[1]، لخَطيبُهُ أخطبُ من خطيبنا، ولشاعره أشعرُ من شاعرنا، ولأصواتُهم أعلى من أصواتنا، ثم أسلموا[2].

٤ ـ البحث عن الأدباء والكشف عن المواهب:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**اهجوا قريشاً فإنّه أشد عليها من رشقٍ بالنبل**»، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «**اهجهم**» فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضّارب بذَنَبِهِ، ثم أدلع لسانه فجعل يحرّكه فقال: والذي بعثك بالحق لأفْرِيَنَّهم بلساني فَرْيَ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تعجلْ فإنّ أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإنّ لي فيهم نسباً حتى يُلَخِّصَ لك نسبي**»، فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخّصَ لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنّك منهم كما تُسَلُّ الشّعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسّان: «**إنّ روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله**»، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هجاهم حسان فشفى واشتفى**» [مسلم: ٢٤٩٠][3].

---

(١) أي: موفّق.

(٢) انظر الخبر في زاد المعاد: ٣/ ٥١٢.

(٣) وقد ساق مسلم في صحيحه عقب هذا الحديث ثلاثة عشر بيتا من القصيدة التي هجا بها حسّان المشركين، وهي قصيدته التي منها: (هجوتَ محمّداً فأجبت عنه).

فالأمر إذن يتجاوز مجرد السماع والإِذْنِ به إلى البحث عن الكفاءات وتفعيلها، وتقديم الأجودِ فالأجود.





٢ ـ ندعو إلى الأدب لأنّه عنوان الهويّة

فاللغة وآدابها في كلِّ أمّةٍ عنوانُ قوميّتِها، وشعارُ هويّتها.

وإذا كان الدارسون والمفكّرون قد اختلفوا في عناصر القوميّة، ومكوّنات الهويّة، فإنّه «ليس من المغالاة في شيءٍ أن نقرّر أن اللغة هي أهمّ وأقوى كلّ الأسس التي تكوّن القوميّة وتحدّد معالمها»[١]. وأنّها هي «الأداة الأولى التي تحفظُ للمجتمع شخصيّته وقوّته، وتوحّد بين أهدافه وغاياته»[٢]؛ ذلك أنّها «أقوى الروابط بين أعضاء المجتمع، وهي في نفس الوقت رمزٌ إلى حياتهم المشتركة، وضمانٌ لها... إذْ هي التي توحّد أعضاءَ الجماعةِ، فتكون العلامةَ التي بها يعرفون، والنّسب الذي إليه ينتسبون»[٣]، ولا غرو فإنّ اللغة «نشاطٌ عقليّ يتّحد بالمهارات المكتسبة، وبالحركة النفسيّة والوجدانيّة للفرد لتصبح (هويّةً) قوميّة

---

(١) علم اللغة الاجتماعي: ٣٧٢.

(٢) علم اللغة الاجتماعيّ: ٣٧٤.

(٣) اللغة بين المعيارية والوصفية: ١٧.

صادقة تميّزه عن غيره، حتى إنها تعبّر عن ذاته ووجوده في الحياة»[1].

وقد كتب الكاتب الفرنسيّ ألفونس دوديه[2] قصّة مؤثرة عنوانها (الدرس الأخير). قصّ فيها على لسان صبيٍّ من الألزاس[3] كيف هرب من المدرسةِ، وأخذ طريق الحقول، ليقطع النهار في اللهو واللعب، ثم بدا له، فعَدَلَ عن هذا وذهب إلى المدرسة، فإذا هو يرى الناس يسرعون السّير في الشوارع، مصفرّةً ألوانهم، تبدو عليهم أمارات الذُّعر والألم، وإذا هو يرى الأستاذ يذهب ويجيء في باحة المدرسة قلقاً مضطرباً، وقد قعد أهل القرية على مقاعد الصغار، فانسلّ إلى مكانه متحيّراً لا يدري ما الخبر، وإذا بالأستاذ يعلو المنبر ويقول بصوت مرتجف: أولادي. هذه آخر ساعة أراكم فيها، ثم نفترق إلى غير تلاقٍ؛ لأنّ بلادكم احتلّها الألمان وصارت دروسكم باللغة الألمانيّة فلا فرنسيّة بعد اليوم، وخنقته العَبَرات فما استطاع أن يتمّ كلامه، فعاد يقول: الآن أصغوا إليّ لألقي عليكم (الدرس الأخير) باللغة الفرنسية، قم أنت يا فلان.

قال الصبيّ: فما سمعت اسمي حتى ارتجفتُ ووقفتُ ساكتاً، ولم أكن قد حفظت درسي، فقال لي الأستاذ: اقعد. أنا

---

(١) اللغة العربية والنهضة القومية، د. عبدالله الجبوري: ١٠٧.

(٢) كاتبٌ فرنسيٌّ، ولد عام ١٨٤٠م، وتوفّي في باريس عام ١٨٩٧م. من كتبه: الشيء الصغير، العاشقات، رسائل من مطحنتي، مرفأ تاراسكون، جاك، سافو، قصص الاثنين. انظر: موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب: ١٩٤.

(٣) مقاطعة فرنسيّة.

لا أعنفك ولا أعاقبك، **ولكن اعلموا، اعلموا يا أولادي أنكم أضعتم بلادكم وسلمتموها إلى عدوّكم بإهمال لغتكم**[1].

إنّ هذه القصّةَ القصيرةَ تصوّر بصدقٍ وعمقٍ كيف يكون إهمالُ اللغة والأدب سبيلاً إلى تضييع الأمّة، وفقدانها سيادَتها. وفي المقابل تكون العناية باللغة وآدابها سبيلاً من سبُل نشر سلطان الأمّة الثقافيّ والسياسيّ.

والغربيّون الذين أخذوا اليوم بزمام الحضارة قد أدركوا هذا المعنى غاية الإدراك، فقد جاء في أدبيّات الثورة الفرنسيّة (بيانٌ عن مجلس الثورة الفرنسيّة) هذا النصُّ: أيها المواطنون ليدفع كلاً منكم تسابقٌ مقدّس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا؛ لأنّ تلك اللهجات رواسب من بقايا عهود الإقطاع والاستعباد. وفي عام ١٩٩٦م رفضت فرنسا ترشيح من يتقدّم لإشغال منصب (الأمين العام لهيئة الأمم المتّحدة) ما لم يكنْ يتكلّم الفرنسيّة[2].

وحين حُوربتْ بولندا، وغَشِيَتْ أرضَها جيوشُ الأعداءِ، لم يكن لأهلها من عزاء إلا لغتهم القوميّة، فغنّوا بها الأغاني الشعبيّة، وتمسّكوا بها بكلّ قوةٍ، وأصبحت عندهم رمزاً لوحدتهم وعاداتهم وتقاليدهم القوميّة، وصار حبّهم لها عميقاً ومقدّساً، وبات الواحدُ منهم يتكلّم بالبولنديّة إشباعاً لعواطفِهِ القوميّة وهو يعلمُ أنّ ذلك قد يقوده إلى السجن[3]!

بل ذهب بعض مفكّري الغرب إلى أنّ اللغةَ أهمُّ من

---

(١) انظر: في سبيل الإصلاح: ٧، ٨.

(٢) نقلا عن: اللغة العربية والنهضة القومية: ١١١.

(٣) انظر: علم اللغة الاجتماعي: ٣٧٩.

الأرضِ! قال فوسلر: «إذا حُرِم الإنسان من موطنِهِ على الأرض، فإنّه يجد موطناً روحيّاً في لغتِهِ القوميّة التي يحسّها دائماً وأبداً، والتي سوف تصبح قوةً حقيقيّةً تمكّنُهُ يوماً ما من الحصول على موطنٍ آخر على الأرضِ»[1].

ومن قرأ التاريخ عرف أن القوميّات التي نشأت في أوروبّا في القرن التاسع عشر قد قامت على أساس اللغة، «فقد وُجدتْ ألمانيا وإيطاليا على هذا الأساس، وقام استقلال اليونان وبلغاريا وألبانيا والمجر ويوغسلافيا على أساس أن لكل دولة من هذه الدول لغة قوميّة متميّزةٌ»[2].

ولعلّ من أقوى الأدلّة على تأثير اللغة في بناء الدول وتماسكِها أنّ إسرائيل قد رأتْ بعْثَ اللغة العبرية التي كانت قد ماتت إلى الحياةِ مرّة أخرى، وكانت في ذلك مدركة لأهميّة الوحدةِ اللغويّة في ترسيخ وحدة اليهود الذين جاؤوا من كل مكان، ويتحدّثون لغاتٍ مختلفة.

وقد أدركَ المستعمرُ الغربيُّ هذه المعاني، فجعل من همّهِ في كل بلادٍ يحتلّها أن يفرضَ لغتَهُ، ويحاربَ لغةَ أهل البلد، قال نابليون: «علِّموا اللغة الفرنسيّةَ، ففي تعليمها خدمة الوطن الحقيقية»[3]. ومن تتبّع تاريخ الصراع بين الفرنسية والإنجليزية في مصر رأى العجبَ العجابَ من تنافس المستعمرين على غرس لغتِهم وبثّ لسانِهم.

---

(١) علم اللغة الاجتماعي: ٣٧٩.

(٢) مدخل إلى اللغة: ١٧٦.

(٣) في الأدب الحديث: ٢/ ٣٤.

وثمّت في الجزائرِ صورةٌ أخرى من الحربِ اللغويّة، ودونَك هذه النصوص التي وردت في بعض التعليمات التي صدرتْ في أوائل أيّام الاحتلالِ الفرنسيّ للجزائر:

- إن الجزائر لن تصبح حقيقةً مملكةً فرنسيّةً إلا عندما تصبحُ لغتُنا هناك لغةً قوميّةً، والعمل الجبّارُ الذي علينا إنجازُهُ الآن هو السعيُ وراء نشرِ اللغةِ الفرنسيّةِ بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربيّة الدّارجة بينهم الآن.

- لا تنسَ أنّ لغتنا هي اللغة الحاكمةُ... وبهذه اللغة يجب أن تصدر جميعُ البلاغاتِ الرسميّةِ، وبها يجب أن تكتب جميع العقود، وإنّ من أهمّ الأمور التي يجب أن نعتني بها قبل كل شيءٍ السعيَ وراء جعل اللغة الفرنسيّة دارجةً وعامّةً بين الجزائريين الذين عقدنا العزمَ على استمالتهم إلينا وتمثيلهم بنا، وإدماجِهم فينا، وجَعْلِهم فرنسيين[1].

ولا يقولنّ قائلٌ: إنّك تحطبُ في وادي القوميّة المقيتةِ، وتدعو بدعوى الجاهليّة، وتجعل اللسان مقدّماً على الإيمان. كلا.. فالإسلامُ هو الرابطةُ العُظْمى بين بنيهِ، غير أنّ الإسلامَ نفسَهُ هو الذي نزل كتابُهُ بالعربيّةِ، وحثّ على تعلّم العربيّة، ومن ثَمّ كان للعروبةِ «مكانُها البارزُ، وحظّها الوافرُ، فالعربُ هم أمّة الإسلام، ولن ينهض الإسلام بغير اجتماعِ كلمة الشعوبِ العربيّة ونهضتِها»[2]، وكما يحوطُ الأب الحازمُ أهل بيتِهِ ويخصّهم

(١) انظر هذه النصوص وغيرها في كتاب ساطع الحصريّ (ما هي القوميّة) ص: ٧٣، وقد نقلتُها عن: علم اللغة الاجتماعي: ٣٨٥.

(٢) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا: ١٣٠.

برعايتِهِ دون أن يلزم من ذلك تفريطُهُ في حق جيرانِهِ ومدينتِهِ ووطنه، يحتفي المسلم بالعربيّةِ والعروبةِ دون أن يصرفَهُ ذلك عن أخوّة الإسلامِ ورابطةِ الإيمان.





٣ ـ ندعو إلى الأدب
لأنّ له أثَرَه العظيم في البناء الحضاريّ

فالأدب «إذا كانت ألفاظه حافلة بما يمتع أو يقنع أو يفيد كان إنتاجُهُ عملاً مثمراً لا يقلُّ خطراً عن صنع آلة أو اختراع قنبلة أو كشف دواء. ورجال الآداب الخليقون بهذه الإضافة إليه أقلُّ عدداً في كل أمة من رجال العمل والمال والسياسة، ووظيفتهم وهي التفكير والتعبير أقوى أثراً في رقي الأمم من وظائف أولئك جميعاً»[١].

وليس هذا زخرفاً من القول ولا غروراً.. فإنّ السّواد الأعظم من الأمة تحرِّكهم العواطف، ويمكن تفعيل دورهم الحضاريّ من خلال إيقاد هممهم وبعث حماسهم ببليغ القول، وجزل العبارة، وفصيح البيان «وإذا كان تأثير المفكر والمفتي علميّاً فإنّ تأثير الشاعر أخلاقيّ من جهة، وهِمَمِيٌّ من جهة أخرى، يحبِّبُ للنفوس البذل، ويوجد فيها الاستعداد لركوب المصاعب، وبخاصة إذا نُشر شراع الدعوة وقت هبوب الرياح، فينزل الشعراء ليضرموا حرارة التحدي، ويغرسوا روح الهدم والبناء»[٢].

---

(١) وحي الرسالة: ٣/ ٢٠٧

(٢) صناعة الحياة: ٣١.

و«أمامكم الساسة والقادة والزعماء والعلماء والمصلحون في كلِّ أمّة، هل تغني عنهم علومهم وعقولهم عند الناس شيئاً إذا لم يملكوا ناصية البيان، فيقنعوا إذا كتبوا، ويؤثروا إذا خطبوا؟»[١].

وأنا أتجاوز هذا التأثير العاطفيّ المشهور عن الأدب لأقول: إنّ للأدب أثرَهُ كذلك في المناقشة الفكرية والمحاكمة العقلية، التي تحرك الأمة نحو فعل حضاريّ منجِز.

ولعلّ من الأدلّةِ على هذا الأثر للأدب ما عرف في التاريخ الأدبيّ بتحسين القبيح وتقبيح الحسن.. فالذي يحصل هنا هو مجادلة عقلية عميقة مفتاحها البيان واللفظ، يتحول الأدب فيها من أن يكون مجرد حضّ هممي، وتحريك عاطفي، إلى أن يكون استثارة عقلية، ولفْتاً للذهن إلى جوانب كان عنها غافلاً.. ودونك هذه الأخبار:

- وفد عمرو بن الأهتم على رسول الله هو والزِّبْرِقان بن بدر فأسلما، وكان رسول الله ﷺ يكرمهما، فسأل يوماً عَمْراً عن الزِّبْرِقانِ بحضوره فقال: مطاع في أَدْنَيْهِ، شديد العارضة في قومه، مانعٌ لما وراء ظهره. فقال الزِّبْرِقان: يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسدني. فقال عمرو: أما والله فإنه زَمِرُ[٢] المروءة، ضيِّق العطن[٣]، لئيم الخال، أحمق الولد،

---

(١) وحي الرسالة: ٣/ ٢٠٩.

(٢) الزَّمِرُ: قليل المروءة.

(٣) معناه: قليل العطاء، ضيق النفس، فكَنى بالعطن عن ذلك. والأصل في (العَطَن): الموضع الذي تبرك فيه الإبل إلى الماء إذا شربت وأبركوها عند الحياض ليعيدوها إلى الشرب. انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس ٢/ ٣٩٣.

قريب العهد بالغنى. فرأى تغيُّرَ النبيّ ﷺ لما اختلف قولُه. فقال: والله يا رسول الله ما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية، ولكن رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت. فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ من البيان لسحراً**» [مستدرك الحاكم: ٦٥٦٨، المعجم الأوسط: ٧٦٧١].

ـ صعد خالد بن عبدالله القسريّ منبر مكة يوم الجمعة، وهو أميرٌ للوليد بن عبدالملك بن مروان، فأثنى على الحجاج خيراً، فلما كانت الجمعة الثانية وقد مات الوليد، وَرَدَ عليه كتاب سليمان يأمره بشتم الحجاج وذكر عيوبه، وإظهار البراءة منه، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ إبليس كان يظهر من طاعة الله عز وجل ما كانت الملائكة ترى له به عليها فضلاً، وكان الله قد علم من غشِّه ما خفي عن الملائكة، فلما أراد الله فضيحته ابتلاه بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه منهم، فلعنوه. وإنّ الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلاً، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غلِّهِ وغشِّهِ على ما خفيَ عنا، فلما أراد فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين، فالعنوه لعنه الله. ثم نزل[1]!

ـ مرّ غيلان بن خرَشة الضبّي مع عبدالله بن عامر بنهر أمّ عبدالله الذي يشقّ البصرة، فقال عبدالله: ما أصلحَ هذا النهر لأهل هذا المصر! فقال غيلان: أجل والله أيها الأمير؛ يتعلّم فيه

---

(١) شرح مقامات الحريري: ١/ ١٥٥. والمقصود من رواية الخبر بيان قدرة الأديب على التقبيح والتّحسين، وليس المراد إقرار ما فيه من النفاق الظاهر، والقياس الفاسد.

العومَ صبيانهم، ويكون لسقائهم، ولسيل مياههم، ويأتيهم بميرتهم. ثم عاد غيلانُ فساير زياداً عليه، فقال زياد: ما أضرّ هذا النهر لأهل هذا المصر، فقال: أجل والله أيها الأمير، تنزّ منه دورُهم، ويغرق فيه صبيانهم، ويكثر لأجله بعوضهم[1]!

وثمّت جانب ثالث مهم من جوانب ارتباط الأدب بالبناء الحضاريّ، هو جانب ارتباط اللغة ارتباطاً عضويّاً بالحركة العمليّة الحضاريّة الخلاقة، فالصلة «قويّةٌ بين تكوين الأفكار وصنع الكلمات. فكل نشاط علميّ يمكن ردُّهُ إلى وجود لغةٍ سليمةٍ محكمة الصّياغة، عامرة البنيان؛ لأنّ اللغة جزءٌ مهم من كليّات التفكير، ولا يتمّ تطوّر المعارف والعلوم إلا تبطوير اللغة، ومحالٌ أن يتمّ إبداع عمليّ بمعزل عن الإبداع اللغويّ»[2].

ولعلّه من هذا القبيل ما سبقت الإشارة إليه من قول شبيب بن شبّة: اطلب الأدب فإنه دليل على المروءة، وزيادة في العقل، وصاحب في الغربة، وصلة في المجلس[3]، وكذا قول عمر: خذ النّاس بالعربيّة فإنّها تزيد في العقل وتثبّت المروءة[4]، فـ (زيادة العقل) هنا تأكيد لما أسلفته من ارتباط النهضة العلميّة الحضارية بالنهضة اللغوية.



---

(١) شرح مقامات الحريري: ١/١٥٦.

(٢) اللغة العربية والنهضة القومية، د.عبد الله الجبوري: ١٠٩.

(٣) البيان والتبيين: ١/٣٥٢.

(٤) طبقات الزبيدي: ١٣.



٤ ـ ندعو إلى الأدب لأثره الأخلاقيّ والتّربويّ

وهذا شيء قد اجتمعت عليه الآراء واتفقت عليه الكلمة. ذلك أنّ الأدبَ لا يخلو من حكمةٍ سائرةٍ، ومثلٍ شاردٍ، ومعانٍ شريفةٍ، فمن ثمّ يكون تعاهدُهُ مروّضاً للنفس على هذه الخلالِ المرضيّة، وحاملاً لها على الترفّع والصيانة.

كتب عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريّ: مُرْ مَنْ قِبَلك بتعلّم الشعر، فإنه يدلّ على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب[(١)].

وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا من الشعر ما يكون لكم حُكْماً ويدلكم على مكارم الأخلاق[(٢)].

وقال معاوية رضي الله عنه: يجب على الرجل تأديب ولده، والشّعر أعلى مراتب الأدب[(٣)].

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٢٨.

(٢) مكارم الأخلاق: ١/٣٣، وقريب من هذا اللفظ في ربيع الأبرار: ٤/٢٦٦.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٢٩.

وقال معاوية رضي الله عنه أيضاً: اجعلوا الشعر أكبر همّكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفّين، وقد أُتيتُ بفرسٍ أغرَّ محجّل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدّة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أبتْ لي همتي وأبى بلائي ... وأَخْذي الحَمْدَ بالثمن الربيحِ
وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيحِ
وقولي كلما جشأت وجاشت: ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحميَ بعدُ عن عِرْضٍ صحيح[1]

وقال الزّبير بن بكّار: سمعت العمريّ يقول: روُّوا أولادكم الشعر، فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحضّ على الخلق الجميل[2].

ودفع عبدالملك بن مروان ولده إلى الشعبيّ ليؤدّبهم، فقال: علِّمهم الشعر يمجدُوا وينجدوا[3]، أي: يكونوا أهل مجدٍ ونجدةٍ.



(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٢٩، والخبر مختصراً في سير أعلام النبلاء ٣/ ١٤٢.
(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٣٠.
(٣) الأدب المفرد للبخاري: ٣٠١.



٥ ـ ندعو إلى الأدب لأنّه يخلّد المآثر والمفاخر

فكم من حدثٍ عظيم الشأن جليل الخطر طواه التاريخ، وكم من حدث أقلَّ منه شأناً وأدنى أثراً تولّج كل سمع، وطرق كل قلب، لا لشيء إلا لأنّ شاعراً فحلاً فذّا خلّدَه بكلمة.

لقد كان فَتْح عمّورية عظيماً في الفتوح ولكنه لم يكن أعظمها، كانت معركة (شقحب) على سبيل المثال أجلّ خطراً وأعظم أثراً، وكذلك كانت الزلاّقة في الأندلس، ولكن عمّورية رزقت بأبي تمام، فكان فتحه في بائيته أعظم من فتح عمورية. وهانحن اليوم يعرف صغيرنا وكبيرنا عمورية وفاتحها.. فمن منا يعرف وادي المخازن وبطلها عبدالملك المعتصم بالله؟ ومن منّا يعرف شيئاً عن يعقوب الموحدي ومعركته الفاصلة (الأَرَك) التي قُتل فيها ١٤٦٠٠٠ من الفرنج، وأُسر ثلاثون ألفاً؟

لقد كان الأدب وحده هو الذي خلّد عمورية.. كما خلّد معركة الحدث بقصيدة المتنبي الشهيرة:

على قدْر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدْر الكرام الكرائمُ

وفيها يقول:

هل الحَدَث الحمراء تعرف لونها   وتعلم أي الساقيين الغمائمُ؟[1]

وها هو كافور الإخشيديّ.. يصفه الذهبي بأنه ساد لرأيه وحزمه وشجاعته، وأنه كان مهيباً سائساً حليماً جواداً وقوراً، وأنه كان يتعبد ويتهجد، وأنه كان يقظاً ذكياً[2]، ومع كل هذه المفاخر والمناقب، لم يبق في أذهاننا عن كافور إلا كلمة المتنبي:

لا تشتري العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيدُ!

فأيّ قدرة هذه للأدب؟

وكم من مفاخر في عصرنا يمكننا أن نخلدها للأجيال إذا نحن أخذنا بزمام الأدب وعنانه؟

وكم من بطولة تأخذ حجمها أضعافاً مضاعفة إذا صورها قلم أديب أو ريشة شاعر أو خيالُ روائيّ؟

وما أحسن كلمة دعبل الخزاعي:

لا تعرضنّ بمِزْحٍ لامرئٍ طَبِنٍ   ما راضَهُ قلبُهُ أجراه في الشّفةِ
فرُبَّ قافيةٍ بالمزْحِ جاريةٍ   في محفل لم يرد إنماؤها نمت
إني إذا قلتُ بيتاً مات قائلُهُ   ومن يقالُ له والبيت لم يمت[3]

---

(١) انظر ما دوّنه الأستاذ علي الطنطاوي في كتابه: في سبيل الإصلاح ص: ٧٤ ـ ٧٦.
(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٩٠ ـ ١٩٣.
(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٧٧.

والطِّبِنُ: الفطنُ. يريدُ: لاتمازحْ شاعراً ذُلِّلَ له القولُ، تفوهُ شفتاهُ بكلِّ ما جال في قلبِهِ.

ولما لقيَ عمرُ رضي الله عنه أبناء هَرِمِ بن سنان ممدوحِ زهير قال لهم: ما أعطى أبوكم زهيراً؟ فقالوا: أعطاه مالاً كثيراً، فقال عمرُ: لقد ذهب ما أعطيتموه، وبقيَ ما أعطاكم[1].

ومن أجل هذه الطبيعة في الأدب أعني طبيعة الخلود والسيرورة كان الناس يتحامَوْن الشعراء، ويحرصون على إرضائهم، خشية بيت يخلّد مسبتهم على الأزمان.

قال الجاحظ:

وللشُّعراء ألسنةٌ حِدادٌ ... على العورات مُوفيةٌ دليلهْ
ومن عقل الكريم إذا اتّقاهم ... وداراهم مداراةً جميلهْ
إذا وضعوا مكاويَهم عليه ... وإن كذبوا فليس لهنّ حيلة[2]

وقد هجا الأحوصُ بن محمد الأنصاري رجلا من الأنصار يقال له: ابن بشير وكان مكثراً (أي: صاحب مالٍ)، فاشترى هديّة ووفد بها على الفرزدق مستجيراً به فأجاره، ثم قال: أين أنت من الأحوص بن محمد؟ فقال: هو الذي أشكو، فأطرق الفرزدق ثم قال: أليس هو الذي يقول:

ألا قف برسم الدار فاستنطق الرَّسْما ... فقد هاج أحزاني وذَكَّرَني نُعْمَى

---

(١) العقد الفريد ٦/١٤٣، وفي الخزانةِ ٢/٣٣٥: وفي رواية عمر بن شبّة: قال عمرُ لابن زهيرٍ: ما فعلتِ الحللُ التي كساها هرمٌ أباك؟ قال: أبلاها الدهرُ، قال: لكنّ الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يُبلها الدهر.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٧٨.

قال بلى، قال: والله لا أهجو شاعراً هذا شعره. فاشترى هديّة أنفس من الأولى وصار إلى جرير، فاستجاره فأجاره، فقال: ما فعل ابن عمّك الأحوص؟ قال هو صاحبي الذي هجاني، قال: أليس القائل:

تمشَّى بشتْمي في أكاريس[1] مالك   يشيد به كالكلب إذ ينبح النّجما؟

قال: بلى، قال: والله لا أهجو شاعراً هذا شعره، فاشترى أكثر من الهديتين وأهداها إلى الأحوص وصالحه[2].

ومن طريف ما يروى أن رجلاً من بني حرام هجا الفرزدق، فجاء به قومه يقودونه إليه، فقال الفرزدق:

ومن يك خائفاً لأذاة شعري   فقد أمن الهجاء بنو حرامِ
هم قادوا سفيههم وخافوا   قلائد مثل أطواق الحمامِ[3]



(١) الكِرْس ـ بكسر الكاف ـ: أبياتٌ من الناس مجتمعة، وجمعها: أكراسٌ وأكاريس.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٦٦.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٦٦، وأطواق الحمام يُضرب بها المثل في الثّبات واللزوم.



٦ ـ ندعو إلى الأدب لسلطانه على النفوس

ولأجل سلطانه هذا كان أثره كبيراً.

وهذا باب من فضائل الأدب لا يحد، فما أكثر الجوانب التي يطغى فيها أثر الشعر على النّفس الإنسانية فيرفع عندها ما كان وضيعاً، ويضع ما كان رفيعاً، ويُسكّن ما كان ثائراً، ويثير ما كان ساكناً، وهكذا.

وبمثلِ هذا التأثير يغدو الأدب سلاحاً تغييرياً فعّالاً بيد من يروم التغيير.

وسوف أذكر جوانب كثيرة تؤيد هذا الأثر الضخم للأدب..

أ ـ الأدب يرفع الوضيع:

ـ «فممن رفعه ما قاله من القدماء الحارث بن حلّزة اليشكريّ، وكان أبرصَ، فأنشد الملك عمرو بن هند قصيدته: (آذَنَتْنَا ببَيْنِها أسماءُ) وبينه وبينه سبعة حُجُبٍ، فما زال يرفع حجاباً فحجاباً لحُسْنِ ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينهما حجاب، ثم أدناه وقرّبه»[1].

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٤٣

- وممن رفعه الشعر المحلَّق[1]، وقد كان لأبي المحلَّق شرفٌ، فمات وقد أتلف ماله وبقي المحلَّق وثلاثُ أخواتٍ له، ولم يترك لهم إلا ناقةً واحدةً وحلّتين كان يشهد فيهما الحقوق، فأقبل الأعشى من بعض أسفاره يريد منزله باليمامة فنزل الماءَ الذي به المحلَّق، فقَراه أهل الماء فأحسنوا قِراه، فأقبلتْ عمّةُ المحلَّق فقالت: يابن أخي، هذا الأعشى قد نزل بمائنا، وقد قراه أهل الماء، والعرب تزعم أنه لم يمدح قوماً إلا رفعهم، ولم يَهْجُ قوماً إلا وضعهم فانظر ما أقول لك، واحْتَلْ في زِقٍّ من خمر[2] من عند بعض التجار، فأرسِلْ إليه بهذه الناقة والزقّ وبُرْدَيْ أبيك، فوالله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفه ونظر إلى عِطْفَيه في البردين ليقولنّ فيك شعراً يرفعك به.

فقال المحلَّقُ: ما أملك غير هذه الناقة وأنا أتوقَّعُ رِسْلها[3]، فأقبل يدخل ويخرج، ويهمُّ ولا يفعل، فكلما دخل على عمته حضّته حتى دخل عليها فقال: لقد ارتحلَ الرّجل ومضى! قالت: الآن والله أحسن ما كان القرى! تُتبعه ذلك مع غلام أبيك فحيثما لحقه أخبره عنك أنك كنت غائباً عن الماء عند نزوله إياه، وأنّك لما وردت الماء فعلمت أنه كان به كرهت أن يفوتك قِراه، فإن هذا أحسن لموقعه عنده، فلم تزل تحضّه حتى أتى بعض التجار فكلّمه أن يقرضه ثمن زِقّ خمر، وأتاه بمن

---

(١) وإنما سمي محَلَّقاً لأن حصاناً له عضّه في وجنته فحلَّق فيه حلقة [الأغاني: ٩/١٣٦].

(٢) الزِّقُّ: وِعاءٌ من جلدٍ يتّخذ للشرابِ، وقد كان الأعشى مفتوناً بالخمرِ والعياذ بالله، وما منعه من الإسلامِ إلا عِلْمُهُ أنّه يحرّم الخمرَ.

(٣) أي: لبنها.

يضمن ذلك عنه فأعطاه، فوجَّهَ بالنّاقة والخمر والبردين مع مولى أبيه، فخرج يتبعه فكلما مرَّ بماء قيل: ارتحل أمس عنه حتى صار إلى منزل الأعشى بمنفوحة اليمامة، فوجد عنده عِدّة من الفتيان قد غدّاهم بغير لحم، وصبَّ لهم فضيخاً[1] فهم يشربون، فقرع الباب، فقال الأعشى: انظروا من هذا؟ فخرجوا فإذا رسول المحلّق يقول كذا وكذا، فدخلوا عليه وقالوا: هذا رسول المحلّق الكلابيّ أتاك بكيت وكيت، فقال: ويحكم أعرابّي! والذي أرسل إليّ لا قَدْر له، والله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفي لأقولنّ فيه شعراً لم أقل قطّ مثله.

فواثبه الفتيان وقالوا: غبت عنا فأطلت الغيبة، ثم أتيناك فلم تطعمنا لحماً، وسقيتنا الفضيخ، واللحمُ والخمرُ ببابك لا نرضى بذا منك. فقال: ائذنوا له، فدخل فأدّى الرّسالة وقد أناخ الجزور بالباب، ووضع الزّقَّ والبردين بين يديه.

فقال الأعشى: أَقْرِ سيّدك السّلام وقل له: سيأتيك ثناؤنا، وقام الفتيان إلى الجزور فنحروها وشقّوا خاصرتها عن كبدها، وجلدها عن سنامها، ثم جاؤوا بهما، فأقبلوا يشوون، وصبوا الخمر فشربوا، وأكل معهم وشَرِب، ولبس البردين ونظر إلى عِطْفَيْهِ فيهما فأنشأ يقول:

أَرِقْتُ وما هذا السُّهاد المؤرِّقُ

حتى انتهى إلى قوله:

أبا مسمعٍ سار الذي قد فعلتمُ   فأَنْجَدَ أقوامٌ به ثم أعرقوا

---

(١) الفضيخ: اللبن الذي غلبه الماءُ.

بِهِ تُعقدُ الأحمالُ في كل منزلٍ وتُعقدُ أطراف الحبال وتُطلقُ

قال: فسار الشعر وشاع في العرب فما أتت على المحلَّق سنة حتى زوّج أخواته الثلاث كل واحدة على مائة ناقة فأيسر وشَرُف[1]!.

وقال ابن رشيق: «فلم تُمْسِ واحدةٌ (يعني: من أخواته) إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف»[2].

ومن شعر الأعشى في هذه القصيدة الباذخة:

نفى الذمَّ عن آل المحلَّقِ جفنةٌ كخابية الشيخ العراقيّ تفهقُ[3]

لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوء نار باليفاع[4] تَحَرَّقُ

تُشَبُّ لمقرورينِ يصطليانها وبات على النّار النّدى والمحلَّقُ[5]

رضيعَيْ لبانِ ثدْيٍ أمٍّ تحالفا بأسحمَ داجٍ عوضُ لا نتفرّقُ[6]

ترى الجودَ يجري ظاهراً فوق وجهه كما زان مَتْنَ الهندوانيّ[7] رونقُ

---

(١) انظر: الأغاني ٩/١٣٦.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٤٩.

(٣) قيل: أراد بالشيخ العراقي: كسرى فشبه جفنته بجفنته [صبح الأعشى: ٢/١٤٧]، وكان أبو محرز يرويه كجابية السَّيح، ويقول: الشيخ تصحيف والسَّيح الماء الذي يسيح على وجه الأرض [المزهر: ٢/٣٥٧].

(٤) اليَفاعُ: التلّ.

(٥) المقرورُ: هو الذي يشتكي القُرّ وهو البرد، والنّدى: الكرمُ، جعل الكرم والممدوحَ صاحبينِ يستدفئان بنار واحدةٍ.

(٦) يريدُ أنهما كالأخوين الذَيْنِ رضعا من ثدي واحدةٍ. وتقاسما: أي أقسما. بأسحمَ داجٍ: أي بليلٍ أسود. عوضُ: أبداً، أي: أنهما أقسما في ليلةٍ داجية على ألا يتفرّقا أبداً.

(٧) الهُنْدُوانيّ: السيفُ المنسوب إلى الهند.

ـ **وممن رفعه الشعر** كذلك بنو أنف الناقة، كانوا يَفْرَقُون من هذا الاسم حتى إنّ الرجل منهم يُسأل: ممن هو؟ فيقول: من بني قُرَيْعٍ، فيتجاوز جعفراً أنفَ النّاقة بنَ قُريعِ بنِ عوفِ بنِ مالك، ويُلغي ذكره فراراً من هذا اللقب، إلى أنَ نَقَلَ الحطيئةَ جرولَ بنَ أوسٍ أحدُهم وهو بغيضُ بنُ عامرِ بنِ لؤيٍّ بنِ شماسِ بنِ جعفرٍ أنفِ النّاقة من ضيافة الزِّبْرِقان بن بدرٍ إلى ضيافته وأحسن إليه فقال الحطيئةُ:

سيري أُمامُ فإن الأكثرين حصى والأكـرمـيـن إذا مـا يُـنـسـبـون أبـا

قـومٌ هـم الأنـفُ والأذنابُ غيرهـمُ ومـن يـسـاوي بـأنـف النّـاقـة الـذنـبا

فصاروا يتطاولون بهذا النسب، ويمدون به أصواتهم في جهارة!

وإنما سُمِّيَ جعفرٌ أنفَ النّاقة لأنّ أباه قسّمَ ناقةً جزوراً ونسيَه، فبعثتْهُ أمُّه ولم يبقَ إلا رأسُ الناقة، فقال له أبوه: شأنَكَ بهذا، فأدخَلَ أصابعَه في أنفِ النّاقة وأقبلَ يجرّه؛ فسمي بذلك[1].

ب ـ الأدب يضع الرفيع:

قال الجاحظ: «وهل أهلك عَنزة وجَرْماً وعُكْلاً وسَلولاً وباهلةً وغَنِيّاً الا الهجاء؟ وهذه قبائل فيها فضل كثير وبعض النقص فمَحَقَ ذلك الفضلَ كلَّه هجاءُ الشعراء. وهل فضح

(١) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٥٠.

الحَبَطَاتِ مع شرف حَسَكَةَ بنِ عتّابٍ[1] وعبّادِ بنِ الحُصَيْنِ[2] وولدِهِ الا قولُ الشاعر:

رأيت الخمر من شر المطايا كما الحَبَطاتُ شرُّ بني تميم»[3]

وأشهر من وضعهم الشعر بعد عزة ورفعة بنو نمير وقصتهم مع جرير مشهورة مذكورة.

وذلك أنّ الرّاعي النميريّ كان يقضي للفرزدق على جرير ويفضله، وكان الرّاعي من أشعر الناس، فلما أكثر من ذلك خرج جريرٌ إلى رجالٍ من قومه فقال: ألا تعجبون لهذا الرّجل الذي يقضي للفرزدقِ عليَّ ويفضّلُهُ وهو يهجو قومَه وأنا أمدحهم؟ قال جرير: ثم خرجْتُ ذات يوم أمشي إليه ووالله ما يسرُّني أنْ يعلم أحد بسيري إليه، حتى إذا هو قد مرَّ على بغلةٍ له وابنه جندلٌ يسيرُ وراءه راكباً مُهْراً له، فلما استقبلتُهُ قلتُ له: مرحباً بك يا أبا جندل، وضربْتُ بشِمالي إلى مَعْرَفَةِ[4] بغلته ثم قلت: يا أبا جندل إنّ قولك يُستمع، وإنّك تفضّلُ عليّ الفرزدقَ تفضيلاً قبيحاً، وأنا أمدحُ قومك وهو يهجوهم، وهو ابن عمي وليس منك ولا عليك كُلْفَةٌ في أمري معه، وقد يكفيك من ذلك هيِّنٌ وأن تقول إذا ذُكِرْنا: كلاهما شاعرٌ كريمٌ، فلا تحمل منه لائمةً ولا مني.

---

(١) أحد فرسان بني تميم بخراسان في الإسلام، له ذكر وصيت. انظر: الاشتقاق: ٥٦٤.

(٢) فارس بني تميم في دهره غير مدافع. انظر: الاشتقاق: ٢٠٢.

(٣) البيان والتبيين: ٤/٣٦.

(٤) المَعْرَفَةُ: موضِعُ العُرْفِ، وهو شعر الرقبةِ.

قال: فبينا أنا وهو كذلك، وهو واقفٌ لا يردُّ جواباً لقولي إذْ لحق بالرّاعي ابنه جندل فرفع عصاً معه فضرب بها عَجُزَ بغلته ثم قال: أراك واقفاً على كلبٍ بني كليبٍ كأنّك تخشى منه شرّاً أو ترجو منه خيراً! فضرب البغلةَ ضربةً شديدةً فَزَحَمَتْني زحمةً وقعَتْ منها قلنسوتي، فوالله لو يعوجُ عليّ الرّاعي لقلتُ: سفيهٌ غَوِيٌّ يعني جندلاً ابنه، ولكنه لا والله ما عاج عليّ فأخذت قلنسوتي فمسحتها وأعدتها على رأسي.

وانصرفَ جريرٌ مغضباً حتى إذا صلى العشاءَ ومنزله في عُلِّيَّةٍ (أي غرفة عالية) قال: أسرجوا لي، فأسرجوا له، فجعل يُهَيْنِمُ فسمعتْه عجوزٌ في الدار، فطَلَعَتْ في الدّرجة حتى إذا نظرتْ إليه فإذا هو على الفراش عُريانٌ لما هو فيه: فانحدرت فقالت: ضيفكم مجنون رأيت منه كذا وكذا! فقالوا لها: اذهبي لشأنكِ نحن أعلم به وبما يمارس.

فما زال كذلك حتى كان السَّحَر فإذا هو يكبّر قد قالها ثمانين بيتاً فلما بلغ إلى قوله:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنّك من نمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فذاك حين كبّر ثم قال: أخزيتُهُ والله. أخزيتُهُ وربِّ الكعبة، ثم أصبح حتى إذا عرف أنّ الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمِرْبَدِ وكان جريرٌ يعرف مجلس الراعي ومجلس الفرزدق، فدعا بدهن فادّهنَ وكفَّ رأسه وكان حسن الشعر، ثم قال: يا غلام أسرج لي، فأسرج له حصاناً، ثم قصد مجلسهم حتى إذا كان بموضع السلام لم يسلّم، ثم قال: يا غلامُ قُلْ لعُبَيْد الرّاعي أبعثتك نسوتك تُكسبهنّ المالَ بالعراق؟ والذي نفس جرير بيده لترجعنَّ إليهنَّ بما يسوؤهنَّ ولا يسرّهنَّ، ثم اندفع في القصيدة

فأنشدها، فنكّس الفرزدق رأسه، وأطرق راعي الإبل فلو انشقتْ له الأرض لساخ فيها، وأرمَّ القوم (أي: سكتوا) حتى إذا فرغ منها سار، فوثب راعي الإبل من ساعته فركب بغلته، وتفرّق أهل المجلس، وصَعِدَ الرّاعي إلى منزله الذي كان ينزله ثم قال لأصحابِهِ: ركابَكم ركابَكم فليس لكم ها هنا مُقام، فضحكم والله جرير. فقال له بعضهم: ذلك شؤمك وشؤم جندل ابنك.

قال: فما اشتغلوا بشيءٍ غيرِ ترحُّلِهم، قالوا: فَسِرْنا والله إلى أهلنا سيراً ما ساره أحدٌ، فحلف راعي الإبل أنهم وجدوا في أهلهم قول جرير:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنّكَ من نميرٍ

يتناشده الناس! وأَقْسَمَ بالله ما بلّغه إنسان قطّ، وإنّ لجريرٍ لأشياعاً من الجن فتشاءمت به بنو نمير، وسبّوه وسبّوا ابنه[1].

وقيل: إن الرّاعي النميري مات كمداً من هذه القصيدة.

وإليك شيئاً من آثار هذه القصيدة المدمرة..

قال أبو عبيدة: كان الرجل من بني نميرٍ إذا قيل له: ممّن الرّجل؟ قال: نميريٌّ كما ترى! فما هو إلا أنْ قال جرير:

فغُضّ الطّرفَ إنّك من نميرٍ   فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

حتى صار الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بني عامر![2]

---

(١) انظر: الأغاني ٢٤/ ١٧١.

(٢) نمير هم بنو نمير بن عامر بن صعصعة، وهم إخوة كعبٍ وكلابٍ.

قال: فعند ذلك قال الشاعر يهجو قوما آخرين:

وسوف يزيدُكم ضَعَةً هجائي كما وضعَ الهجاءُ بني نميرِ

فلما هجاهم - أي نميراً - أبو الرديني العُكْليُّ، فتوعّدوه بالقتل قال أبوالردينيّ:

أتوعدُني لتقتلني نميرٌ متى قتلت نمير من هجاها؟

فشدَّ عليه رجلٌ منهم فقتله[1].

قال الجاحظ: «وما علمتُ في العرب قبيلةً لقيت من جميع ما هُجِيَتْ به ما لقيتْ نميرٌ من بيت جرير.

ويزعمون أنّ امرأة مرّتْ بمجلسٍ من مجالس بني نمير فتأمّلها ناسٌ منهم، فقالت: يا بني نمير لا قول الله سمعتم ولا قول الشاعر أطعتم! قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال الشاعر:

فغُضَّ الطّرف إنك من نمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا»[2]

- وممن وضعه الشعر كذلك الربيع بن زياد و«كان من ندماء النعمان بن المنذر، وكان فحّاشاً عيّاباً بذيّاً سبّاباً لا يسلم منه أحد ممن يَفِدُ على النّعمان، فرُمي بلَبيدٍ وهو غلامٌ مراهقٌ فنافسه وقد وُضع الطعام بين يدي النعمان، وتقدّمَ الرّبيع وحده ليأكل معه على عادته، فقام لبيد فقال مرتجلاً:

---

(١) انظر: البيان والتبيين: ٤/ ٣٥.

(٢) البيان والتبيين: ٤/ ٣٦.

يـا رُبّ هـيـجـا هـي خـيـرٌ مـنْ دَعَـهْ
نـحـنُ بـنـي أمِّ الـبـنـيـنَ الأربـعـهْ
ونـحـن خـيـرُ عـامـرِ بـنِ صـعـصـعـهْ
الـمطْـعـمونَ الـجـفـنـةَ الـمدعـدعـهْ[1]
والضاربون الهام تحت الخيْضَعَه [2]
مـهـلاً أبـيـت الـلـعـن لا تـأكـلْ مـعـهْ

فقال النعمان: ولمه؟

قال:

إنَّ اسْـتَـهُ مـن بَـرَصٍ مـلـمّـعَـهْ!

قال: وما علينا من ذلك؟

قال:

وإنّـه يُـدخـلُ فـيـهـا إصـبـعـهْ
يُـدْخِـلُـهـا حـتـى يـواريْ أَشْـجَـعَـهْ
كـأنـمـا يـطـلـبُ شـيـئـاً أودعَـهْ

فرفع النّعمانُ يدَهُ عن الطّعام، وقال: ما تقول يا ربيع؟ فقال: أبيتَ اللعن كَذَبَ الغلامُ، فقال لبيد: مُرْهُ فليجبْ. فقال النّعمان: أجبه. فقال: والله لما تسومني أنت من الخسْف أشدّ

---

(١) أي: الجفنة الممتلئة، من قولهم: دَغْدَعَ الجفنة أي: ملأها. والجفنة: القصعة.

(٢) الخيضعة: اختلاط الأصوات في الحرب.

عليّ مما بَهَتَني به الغلام، فحجبه بعد ذلك، وسقطت منزلته، وأراد الاعتذار، فقال النعمان:

قد قيلَ ما قيلَ إنْ صِدْقاً وإن كَذِباً فما اعتذارك من قولٍ إذا قيلا؟»[1]

«وكتب إليه الرّبيعُ إني قد تخوّفتُ أنْ يكون قد وقَرَ في صدرك ما قاله لبيدٌ، ولست برائم حتى تبعثَ من يجرّدُني فيعلمَ مَنْ حَضَرَكَ من النّاس أني لستُ كما قال، فأرسل إليه: إنّك لست صانعاً بانتفائك مما قال لبيد شيئاً، ولا قادراً على ما زلّتْ به الألسن»[2].

ت ـ الأدبُ يستجلب الشّفاعة ويستنجح الحوائج:

قال عمرُ رضي الله عنه: من أفضل ما أُعْطِيَتْهُ العربُ الأبياتُ يقدّمُها الرّجل بين يدي حاجته، فيستعطفُ بها الكريم، ويستنزلُ بها اللئيم[3].

وتكلّم رجلٌ في حاجة عند عمر بن عبدالعزيزِ، وكانت حاجتُهُ في قضائها مشقّةٌ، فتكلّم الرجل بكلام رقيقٍ موجزٍ، وتأتّى لها، فقال عمر: والله إن هذا للسحرُ الحلالُ[4].

وفي روايات السيرة أنّ قُتيلةَ بنت النّضْرِ بنِ الحارث عَرَضَتْ للنبيِّ ﷺ وهو يطوفُ، فاستوقفتْهُ، وجَذَبَتْ رداءه حتى

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٥١.
(٢) الأغاني ١٧/ ١٨٩.
(٣) فيض القدير ٤/ ١٧٥، والبيان والتبيين: ٢/ ٢٠، وشرح مقامات الحريري: ٤/ ٢٨٨.
(٤) البيان والتبيين: ١/ ٣٥٠.

انكشف منكبه، وكان قد قتل أباها ـ وقيل أخاها ـ فأنشدته:

يـا راكـبـاً إنّ الأثـيـل مـظـنّـة | من صُبحِ خامسةٍ وأنت موفقُ
أبـلـغْ بـه مـيْـتـاً بـأنّ قـصـيـدةً | ما إن تزال بها الركائبُ تخفقُ
مـنـي إليـه، وعـبـرةً مـسـفـوحـةً | جادت بواكِفِها وأخرى تخنقُ
هل يسمعنّ النّضْرُ إنْ ناديتُه | أم كيف يسمع ميّت لا ينطقُ
ظَلّتْ سيوفُ بني أبيه تنوشه | لـلـه أرحـامٌ هـنـاك تـشـقـقُ
أمحمّدٌ ها أنت نجلُ نجيبة | من قومها والفحلُ فحل معرقُ
ما كان ضَرَّكَ لو مننتَ وربما | منَّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ
والنّضْر أقربُ من قتلت وسيلةً | وأحقُّهم إن كان عِتْقٌ يعتقُ

فقيل: إنّ النبي عليه الصلاة والسلام تأثّر وقال: «**لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلتُه**»[1].

ث ـ الشعر يسلّ الغضبَ ويخلّص من الشدائد:

قال ابن عبد ربّه: «والكلام الرقيقُ مصايد القلوب، وإنّ منه لما يستعطف المستشيط غيْظاً، والمنْدَمِلَ حقداً، حتى يطفئَ جمرة غيظه، ويسُلَّ دفائن حقده، وإنّ منه لما يستميل قلب اللئيم، ويأخذ بسمع الكريم وبصره، وقد جعله الله تعالى بينه وبين خلقه وسيلة نافعة وشافعاً مقبولاً»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٠، وفي الاستيعاب ٤/ ١٩٠٥: «قال الزبير: وسمعت بعض أهل العلم يغمز أبياتها هذه ويذكر أنها مصنوعة»، وانظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٥٧.

(٢) العقد الفريد ٢/ ٣

ومن عجيب القصص في هذا المعنى قصّةُ تميم بن جميل، فإنه خرج على المعتصم في أيام دولته ونزع يده من الطاعة، ثم جيء به أسيراً وقد اجتمع الناس إليه ينظرون كيف سيقتله المعتصم، وكان المعتصم قد جلس له مجلساً وأذن للناس بالدخول، ودخل تميمٌ وفُرِشَ النِّطْعُ[1]، وحضر السيّاف، وتميمٌ غير دَهِشٍ ولا وَجِلٍ، فقال المعتصم: إنْ كان لك عذر فأت به.

فقال: إنّ الذّنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسنة الفصيحة، وتُعْيِي الأفئدة الصحيحة، ووالله لقد كَبُرَ الذّنبُ وعَظُمَتِ الجريرة، وانقطعت الحجّة، وساء الظّنّ، ولم يبق إلا عفوك وانتقامك، ولأنت إلى العفو أقرب، وهو بك أشبه وأليق، ثم أنشد ارتجالاً:

أرى الموتَ بين السّيفِ والنّطع كامناً ... يلاحظُني من حيث ما أتلفَّتُ
وأكبرُ ظنّي أنّك اليوم قاتلي ... وأيُّ امرئٍ مما قضى الله يفلِتُ
وأيُّ امرئ يأتي بعذْرٍ وحجّة ... وسيفُ المنايا بين عينيهِ مُصْلَتُ
وما جَزَعي من أنْ أموت وإنني ... لأعلمُ أنّ الموتَ شيءٌ مؤقتُ
ولكنَّ خلفي صبيةً قد تركتُهم ... وأكبادُهم من حسرةٍ تتفتّتُ
كأنّي أراهم حين أُنعَى إليهمُ ... وقد خَمَشوا تلك الوجوهَ وصوّتوا
فإنْ عشتُ عاشوا سالمين بغبطةٍ ... أذودُ الردى عنهم وإنْ مُتُّ مَوَّتوا

فبكى المعتصم، وقال: إنّ من البيان لسحراً، يا تميم، كاد السيف أن يسبق العفو، وقد وهبتُك لله تعالى ولصبيتك، ثم أمر

---

(١) بساطٌ من جلد يتّخذُ لجمع دم القتيل لئلا يصيبَ الأرض منه شيءٌ، ويقالُ فيه: نِطْعٌ ونَطْعٌ ونِطَعٌ.

بِفَكِّ قيوده، وعقد له الولاية على موضعه الذي كان قد خرج منه[1]!

وشبيهٌ بهذا خبر مصعب بن الزبير وقد أُتِيَ بأُسَارى من أصحاب المختار، فأَمَر بقتلهم، فقام أسيرٌ منهم فقال: أيّها الأمير، ما أقبح يوم القيامة أنْ أقومَ إلى صورتك المليحة هذه، ووجهك الحسن فأتعلّقَ بك وأقولَ: يا ربّ سله فيم قتلني؟ فاستحيا مصعب وأمر بإطلاقه، فقال: أيّها الأمير اجعل ما وهبت من حياتي في خفض ودعة من العيش، فأمر له بثلاثين ألف درهم. قال: أشهدك أنّ شطر هذا المال لعبدالله بن قيسِ بن الرُّقَيَّاتِ، قال: لم؟ قال لقوله:

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللّه تجلّتْ عن وجهِهِ الظّلماءُ

فضحك مصعب وقال: اقبض ما أمرنا لك به ولابن قيسٍ عندنا مثلُه، فلم يدر عبدالله إلا وقد وافاه المال[2]!

ونُقِلَ أنّ الحجّاج ظفر بأصحابِ ابنِ الأَشْعثِ فجلس يضرب أعناقهم، فأُتِيَ في آخرهم برجل من تميم، فقال له: يا حجاج، لئنْ كنّا أسأنا في الذّنب فما أحسنت في العقوبة. فقال الحجاج: أفٍّ لهذه الجِيَف، أما كان فيها من يحسن هذا؟ وأمر بتخلية سبيلِ من بَقِي[3].

---

(١) انظر: قصص العرب ١/ ٤١٠، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ١٩٤.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٧١.

(٣) بهجة المجالس: ١/ ٩٩.

ومن أطرفِ ما رُوِيَ في هذا المعنى ما رواه أبو عليٍّ القالي في الأمالي[1] عن الأصمعيِّ قال: كان بِشْرُ بن مروان[2] شديداً على العصاة، فكان إذا ظفر بالعاصي أقامه على كرسيٍّ، وسمّر كفيه في الحائط بمسمار ونزع الكرسيّ من تحته فيضطرب معلّقاً حتى يموت. وكان فتىً من بني عِجْلٍ مع المهلَّب وهو يحارب الأزارقة، وكان عاشقاً لابنة عمٍّ له، فكتبت إليه تستزيره، فكتب إليها:

لو لا مخافةُ بشرٍ أو عقوبتِهِ ... أو أنْ يُشَدَّ على كفيّ مسمارُ
إذن لعطّلتُ ثغري ثم زرتكم ... إن المحب إذا ما اشتاق زوّارُ

فكتبت إليه:

ليس المحبُّ الذي يخشى العقابَ ولو ... كانت عقوبتَه في إلفه النارُ
بل المحبُّ الذي لا شيءَ يمنعُهُ ... أو تستقرَّ ومن يهوى به الدّارُ

قال: فلما قرأ كتابها عطل ثغره وانصرف إليها وهو يقول:

أستغفر الله إذ خفت الأمير ولم ... أخش الذي أنا منه غير منتصرِ
فشأنُ بشرٍ بلحمي فَلْيُعَذِّبْه ... أو يَعْفُ عَفْوَ أميرٍ خيرِ مقتدرِ
فما أبالي إذا أمسيتِ راضيةً ... يا هندُ مانِيْلَ من شَعْري ومن بَشَري

---

(١) ٢/ ٣٠. لا يخفى ما في الخبر من ظلمٍ لا يقرّه شرعٌ ولا عقلٌ، وإنما أوردتُهُ لصدق دلالته على المراد.

(٢) هو بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأمويّ، أميرٌ، كان سمحاً جواداً، ولي إمرة العراقين البصرة والكوفة لأخيه عبد الملك سنة ٧٤هـ، وهو أول أمير مات بالبصرة، توفي عن نيف وأربعين سنة عام ٧٥هـ. [الأعلام: ٢/ ٥٥].

ثم قَدِمَ البصرةَ فما أقام إلاّ يومين، حتى وَشَى به واشٍ إلى بشرٍ، فقال: عليَّ به، فأُتِيَ به فقالَ: يا فاسق، عَطَّلْتَ ثَغرَكَ! هلمّوا الكرسيّ، فقال: أعزّ الله الأمير، إنّ لي عذراً. قال: وما هو؟ فأنشده الأبيات. فرقّ له، وكتب إلى المهلّب، فأثبته في أصحابه.

ج ـ الأدب يهيج الأحقاد والعداوات:

فكم من ساكن هيّجهُ قصيد؟ وراكدٍ استثاره شعر؟

وهذه طبيعةٌ في الشعر والأدب، وذِكْرُنا لها لا يعني إقرارها، فإنّ الإسلام أمر بجمع الكلمة ونهى عن الشقاق والفرقة، وتوعّد الساعي بالإفساد بين النّاس.

دخل سُدَيْفُ بن ميمون على أبي العباس السفاح، وعنده سليمان بن هشام بن عبدالملك وابناه، فأنشده سُدَيْف:

لا يَغُرَّنْكَ ما ترى من أناسٍ ... إنّ بين الضّلوع داءً دويّا

فضعِ السّيفَ وارفعِ السّوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أُمويّا

فقال سليمان: قتلتني يا شيخ قتلك الله، ونهض أبو العباس فوضع المنديل في عنق سليمان وقَتَلَهُ من ساعته[1].

«ودخل شِبْلُ بن عبدالله على عبدالله بن عليّ[2] وأنشده قصيدة له يقول فيها محرِّضاً على بني أمية وعنده منهم ثمانون رجلاً:

---

(١) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٦٢.

(٢) هو عم أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس.

أَقْصِهِمْ أيّها الخليفة واقطع ... عنكَ بالسّيفِ شأفةَ الأرجاسِ
ذُلُّها أظهر التَّودُّدَ منها ... ولها منكمُ كَحَزِّ المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي ... قُرْبُها من نمارقٍ وكراسي
أَنْزِلُوها بحيث أنزلها اللَّه ... بدارِ الهوان والإتعاسِ
واذكروا مَصْرعَ الحسينِ وزيدٍ ... وقتيلاً بجانب المِهْراسِ
والقتيلَ الّذي بحرَّانَ أمسى ... ثاوياً بين غربةٍ وتناسي

فلما سمع ذلك تنكّر، وأمر بهم فقُتلوا، وألقى عليهم البساط، وجلس للغداء وإنّ بعضَهم يُسمعُ أنينُه لم يمتْ بعد»[1].

وكان ابن حزم أميراً على المدينة، فتحامل على الأحوص الشاعر تحاملاً شديداً، فشَخَصَ إلى الوليد بن عبدالملك، فأنشده قصيدة يمتدحه فيها، فلما بلغ إلى قوله كالذي يشتكي ابنَ حزم وظلمه:

لا ترثينّ لحزميٍّ ظفرتَ به ... يوماً ولو أُلقيَ الحزميُّ في النّارِ
النّاخسين لمروانٍ بذي خُشُبٍ ... والدّاخلين على عثمانَ في الدّارِ

فقال له الوليد: صدقت والله، لقد غفلنا عن حزم وآل حزم، ثم كتب عهداً لعثمان بنِ حيّانَ المُرِّيِّ على المدينة، وعزل ابن حزْم، وأمر باستئصال أموالهم، وإسقاطهم جميعاً من الدّيوان[2].

---

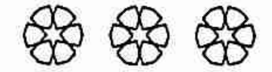
(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٦٣.
(٢) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٦٤.

ح - الأدب يستخلص الحقوق:

لما وثب إبراهيم بن المهديِّ على المأمون اقترض من التجار مالاً كثيراً، فكان فيه لعبدالملك الزيّات عشرة آلاف دينارٍ، فلمّا لم يتمّ أمره مطَلَ التجارَ أموالهم، ولم يَرْجِعْ إليهم ما كان قد أخذ منهم، ولم يقدر أحد منهم على شيء إلا ما كان من محمد بن عبدالملك الزيّات، فإنه صنع قصيدة يخاطب فيها المأمون، منها:

تَذَكّرْ أميرَ المؤمنين قيامَهُ ... بأيمانِهِ في الهَزْلِ منه وفي الجِدِّ
إذا هزّ أعوادَ المنابر باسْتِهِ ... تغَنّى بليلى أو بميّةَ أو هندِ
ووالله ما من توبةٍ نَزَعَتْ بِهِ ... إليكَ، ولا ميلٍ إليكَ، ولا وُدِّ
وكيفَ بمنْ قد بايعَ النّاسُ والتقتْ ... ببيعته الرُّكبانُ غوراً إلى نجدِ
ومَنْ صَكَّ تسليمُ الخلافةِ سَمْعَه ... يُنادى بها بين السِّماطين عن بُعْدِ
وأيُّ امرئٍ سمّى بها قطُّ نفسَه ... ففارقَها حتى يُغَيَّبَ في اللّحْدِ

وعرضَها على إبراهيمَ فسأله إبراهيمُ كتمانها، واستحلفه على ذلك، وأدّى مال أبيه دون سائر التجّار[1].



(١) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٦٤.



٧ ـ ندعو إلى الأدب
لأنه يكسب اللباقة التي تعين
على البديهة وحسن الجواب

وبنا وبشبابنا حاجة إلى هذا، بدلاً من العيّ والحصر.

ودونك نماذجَ فريدةً لسرعة البديهة، وحسْنِ الجواب، جُلُّ أصحابها ممن عُرفوا بالبيان والفصاحة، واشتهروا بالاشتغال بالأدب، فأكسبهم ذلك بديهة، وحُسْن تصرّف، وقدرة على التخلّص من المواقف المحرجة بالإجابات البديعة.

قدم على معاوية رضي الله عنه وَفْدٌ من خراسان فيهم سعيدُ بن عثمان، فطَلَبَ سحبانَ فلم يوجد في منزله، فاقْتُضِبَ من ناحيةٍ اقتضاباً (أي: جيء به فجأة من بعض النواحي ولم يمهل ليعدّ نفسه أو يهيئ أمره)، فقال له معاويةُ: تكلَّمْ، فقال: انظروا إلى عصا تقوِّمُ من أَوَدي[1]، قالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربَّه وعصاً في يده! فضحك معاوية[2].

---

(١) الأَوَدُ: الاعوجاج.

(٢) انظر: سرح العيون: ١٤٧.

وبنى الحجاج وعبدالملك في بعض المساجد بابين، فوقعت صاعقةٌ فأحرقتْ بابَ عبدِ الملك، فداخله حسدٌ للحجّاج، فكتب إليه الحجّاج: إنما مثَلُ أمير المؤمنين ومَثَلي كمَثَلِ ابنَيْ آدمَ ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧][1].

وقال الأصمعيُّ: سمعتُ مولىً لآلِ عمرَ بن الخطاب يقول: أخَذَ عبدُ الملك بن مروان رجلاً كان يرى رَأْيَ الخوارجِ رَأْيَ شبيبٍ، فقال له: ألستَ القائلَ:

ومنّا سويدٌ والبَطِيْنُ وقَعْنَبٌ ومنّا أميرُ المؤمنين شبيبُ

فقال: إنما قلت: (ومنّا ـ أميرَ المؤمنينَ ـ شبيبُ) بالنّصب، أي: يا أمير المؤمنين، فأمر بتخلية سبيله[2].

وقيل لبعضهم: صحبتَ الأميرَ فلاناً إلى اليمن، فما ولاك؟ قال: قفاه[3]!.

وأنشد ابن الرِّقاع قصيدةً يذكر فيها الخمر، فقال الوليد بن عبدالملك: أما إني قد ارتبتُ فيك في جودة وصف الشراب، وما أُراك إلا من أهله، فقال ابن الرِّقاع: وأنا قد ارتبت بك في معرفته[4].

وقال الرّشيد لشَرِيكٍ القاضي: آيةٌ في كتاب الله ليس لك ولا لقومك فيها شيءٌ! قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال:

---

(١) انظر: سرح العيون: ١٧٩.

(٢) انظر: عيون الأخبار ٢/ ١٥٥.

(٣) انظر: بهجة المجالس: ١/ ٩٥.

(٤) بهجة المجالس: ١/ ٩٤.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. فقال: آية أخرى ليس لي ولا لقومي فيها شيء. قال: وماهي؟ قال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦][١].

وممّن شُهِر بحسن البديهة وبراعة الجوابِ أبو العيناء محمّد بن القاسم بن خلاد (ت ٢٨٢هـ) على فُحْشٍ فيه ومجون، وكان رجلاً أعمى صاحبَ ظَرْفٍ وأدبٍ، قال عنه البغداديُّ: كان من أحفظ النّاس، وأفصحهم لساناً، وأسرعِهم جواباً.

وإليك طرفاً من أخبارِهِ الدالّة على حسن بديهةٍ أكسبَهُ إيّاها الأدبُ:

قال المتوكّل له: ما أشدُّ شيءٍ مرّ عليك في ذهاب بصرك؟ قال: فواتُ رؤيتك يا أمير المؤمنين مع إجماع الناس على جمالك[٢].

ودخل مرّة على المتوكّل في قصرِهِ المعروفِ بالجعفريّ فقال: ما تقول في دارنا هذه؟ فقال: إنّ الناس بنوا الدّور في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك[٣].

وحضرَ أبو العيناءِ مجلس بعض الوزراءِ فذكروا البرامكةَ وما نسب إليهم من الجودِ، فقال الوزيرُ لأبي العيناء: قد أكثرتَ من ذكرهم، ووصْفِك إياهم، وإنّما هذا من تصنيف الورّاقين، وتأليف

---

(١) بهجة المجالس: ١/٩٨.

(٢) أبو العيناء: ١٢١.

(٣) أبو العيناء: ١٣١.

المحسِّنين، فقال له أبو العيناءِ: فلم لا يكذبُ الورّاقون عليك أيّها الوزيرُ؟ فأمسك عنه الوزير[1].

ولقيَهُ بعضُ الكتّابِ في السَّحَرِ، فقال متعجّباً من بُكورِهِ: يا أبا العيناء أتبكّرُ في هذا الوقت؟ فقال: أتشاركُني في الفعل وتنفردُ بالعَجَبِ[2]؟

وقيلَ لأبي العيناءِ: بَقِيَ من يُلْقى؟ قال: نعم، في البئر[3]، أراد السائلُ (يُلقى) من اللقاءِ، فجعله أبو العيناء من الإلقاء!



---

(١) أبو العيناء: ١٤٠.

(٢) أبو العيناء: ١٦٣.

(٣) أبو العيناء: ١٩١.



٨ ـ ندعو إلى الأدب
لأنه يخلص المرء من شناعة اللحن وهجنته

وكان الأوائل لا يكادون يبغضون شيئا بغضهم للحن، فما زلنا نأخذ الأمر على جهة التراخي حتى بات اللحن فينا أصلاً، والإعرابُ فرعاً!! لا أعني في حديث الشّوارع والمجالس بل في حديث المحافل والمنتديات وقاعات الدّرس.

وانظر كيف كانت عنايةُ الأوائل بصواب الكلام، ونفرتهم من اللحن.

مرّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه برجلينِ يرميانِ، فقال أحدهما للآخر: أَسَبْتَ [يريد أصبت]. فقال عمر: سوء اللحن أشدّ من سوء الرمي[(١)].

وكانَ رجلٌ إلى جنْبِ ابن عمرَ فلحَنَ، فأرسل إليه: إمّا أن تنحّى عنّا، وإما أن نتنحّى عنك[(٢)].

ولحَنَ أيوبٌ السختيانيُّ في حرفٍ فقال: أستغفر الله[(٣)].

---

(١) الأدب المفرد للبخاري: ٣٠٤.

(٢) أخبار النحويين: ١٠٩ وقد ساقه بسنده.

(٣) أخبار النحويين: ١٢٢.

وتكلّم أبو جعفر المنصور في مجلسٍ فيه أعرابيٌّ فلَحَنَ، فَصَرَّ الأعرابيُّ أذنيه، فَلَحَنَ مرّة أخرى أعظَمَ من الأولى، فقال الأعرابيُّ: أفٍّ لهذا ماهذا؟ ثم تكلّم فلحن الثالثة، فقال الأعرابيُّ: أشهد لقد وليتَ بقضاءٍ وقدر[1].

وقال سعيد بن سليمان: دخلتُ على الرشيدِ فبهرَني هيبةً، فلما لحَنَ خفَّ في عيني[2].

وسمع أعرابيٌّ إماماً يقرأ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١] بفتح التاء من (تَنْكحوا)، فقال: سبحان الله هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده؟ فقيل له: إنّهُ لَحَنَ، والقراءة (لا تُنكحوا) بضمّ التاء. فقال: قَبَّحَهُ الله لا تجعلوه بعدها إماماً فإنه يحلُّ ما حَرّم الله[3].

ودخل رجلٌ على زياد فقال له: إنَّ أبينا هَلَك، وإنَّ أخينا غَصَبَنا على ميراثنا من أبانا! فقال زياد: ما ضيّعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك[4].

ودخل على المأمون جماعةٌ من بني العباسِ، فاستنطقهم فَوَجَدَهم لُكْناً مع يسار وهيئة، فقال: ما أبين الخَلَّة[5] فيهم. لا أقول في أيديهم ولكن في ألسنتهم[6].

---

(١) معجم الأدباء: ١/ ٨٤.
(٢) تنبيه الألباب: ٧٤.
(٣) عيون الأخبار: ٢/ ١٦٠.
(٤) عيون الأخبار: ٢/ ١٥٩.
(٥) الخَلَّة: الفقر.
(٦) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٦٨.

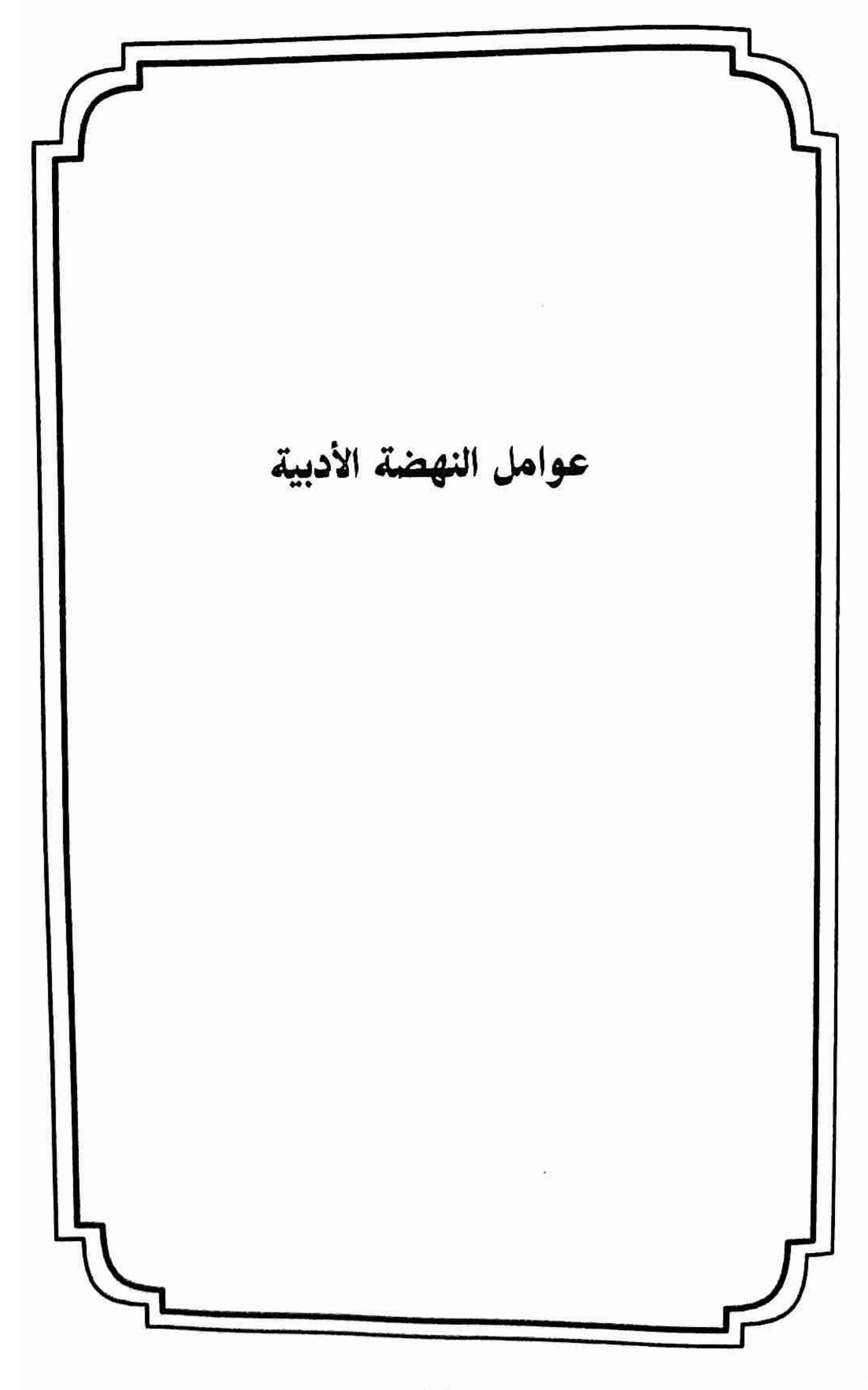
ومما نقل عن السلف في ذمّ اللحن والتشنيع على صاحبه قول أبي الأسود الدؤليّ: إني لأجد للحن غَمَراً كغَمَر اللّحم[1]، وقول ابن المبارك: اللحن في الكلام أقبح من آثار الجدريّ في الوجه[2]، وقول مسلمة بن عبدالملك: اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس[3].



(1) عيون الأخبار: ٢/١٥٨، وغَمَرُ اللحم: ما يعْلَقُ باليدِ من دَسَمِه.

(2) بهجة المجالس: ١/٦٥.

(3) عيون الأخبار: ٢/١٥٨.



عوامل النهضة الأدبية



١ ـ إحياء حبّ الأدب في القلوب

وكلُّ خطوة دون هذه أخشى أن يكون مصيرها الفشل.

وإذا تمكنا من غرس حبّ الأدب في نفوسنا ونفوس جيلنا فقد اختصرنا ثلاثة أرباع الطريق نحو واقع أدبيّ مشرّف ومشرق.

ولما عَلِقَ الأدب بقلوب الأوائل أخذوا منه بحظ وافر فبرعوا وأجادوا.

أنشد ابنُ أبي ربيعة عبدالله بن عباس أو طلحةَ بن عبيدالله قصيدةً فما زال شانقاً ناقته حتى كتبت له[1].

وكان بعض ولد الزّبير يسأل عما لا يحفظ من شعر عمر بن أبي ربيعة، فإذا ذكر له شيء كتبه ويده ترتعد من الفرح[2].

وقال الشعبيّ: كنت أحدّث عبدالملك وهو يأكل، فيحبس

---

(١) غريب الحديث لابن قتية ٢/ ١٦٠، وانظر: ربيع الأبرار: ٤/ ٢٧٣

(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٥٩

اللقمة، فأقول: أَجِزْها أصلحك الله فإن الحديث من ورائك. فيقول: والله لحديثك أحبّ إليّ منها[1]، وذلك لحسن لفظه، وجمال منطقه رحمه الله.

وتأمل هذه المحاورة البديعة..

قال أبو عمرو بن العلاء: قيل لمنذر بن واصل: كيف شهوتك للأدب؟ قال: أسمع بالحرف منه لم أسمعه فتودّ أعضائي أنّ لها أسماعاً تتنعّم مثل ما تنعّمت الآذان، قيل: وكيف طلبُك له؟ قال: طلب المرأة المضِلَّةِ ولدَها، وليس لها غيره. قيل: وكيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع على بلوغ لذته في المال[2].

واعتبِرْ بهذه الكلمة اللطيفة لإمام جليل..

كان أبو السائب المخزوميّ يقول: أما والله لو كان الشعر محرّماً لوردنا الرّحْبة كل يوم مراراً!! والرحبة الموضع الذي تقام فيه الحدود، يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيُحدُّ في كل يوم مراراً ولا يتركه[3].

وثمت حقيقة إذا غرسناها في أذهان الدارسين نفعهم ذلك

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٦٠

(٢) معجم الأدباء: ١/ ٧٦.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٣١. وأبو السائب هو عبدالله بن السائب المدينيّ، قدم الأنبار على أبي العباس السفاح، وكان أديباً فاضلاً مشتهراً بالغزل، يهش عند سماع الشعر ويطرب له، وكان مذكوراً بالصلاح والعفاف، وله أخبارٌ في تطلّبِهِ الشعر هي غايةٌ في العجب، انظر ترجمته في تاريخ بغداد: ٩/ ٤٦٠.

جداً في هذا الباب، إنها حقيقة أنّ الأدب «هو الجمال، هو العاطفة، فكلّ من يتذوّق الجمال، ويحسّ في صدره عاطفة، فهو أديبٌ بالضّرورة، أي أن كلّ إنسان أديب! لأن كلّ إنسان يسرّ ويحزن، ويذكر الماضي، ويحلم بالمستقبل، ويهزّه مشهد الجمال في الطبيعة وفي الإنسان.

وهذه النتيجة تنفعنا جدّاً من الناحية التعليمية؛ لأننا نستطيع أن نجعل كلّ طالبٍ منصرفاً إلى الأدب، مهتمّا به، يحبّه ويميلُ إليه، إذا درّسناه الأدب من هذه الناحية، وعقدنا الصّلات بينه وبين نفسه. ولقد جرّبتُ ذلك بالفعل في الصفوف العلمية التي أدرّس فيها، فكان الطلاّب معرضين عن الأدب كلّ الإعراض، فما زلت بهم، أقرأ عليهم أجمل الآثار الأدبيّة، وأهزّ في نفوسهم حسّ الجمال، ومثوى العاطفة، حتى غدوا وهم منصرفون إلى الأدب يدرسونه وينشؤون فيه»[1].



(١) فكر ومباحث: ١٥١.



٢ - إيجاد المعلم القدوة

إذْ «حاجة طالب اللغة إلى أستاذ يُفيض عليه روح اللغة، ويوحي له بسرِّها، ويفضي إليه بلبِّها وجوهرها أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها، وعندي أنّه لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان، فكما أنّ طالب الأخلاق لا يستفيدها إلا من أستاذ كَمُلَتْ أخلاقه، فكذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذٍ مبين»[(١)].

و«المعلم القويّ في علوم اللغة، صاحب الاطّلاع فيها، والذّوق في فهمها هو الذي يصلح فساد المناهج، ويقوّم اعوجاج الكتب، وييسِّر عُسْر اللغة ـ إن كان فيها من عُسْر ـ»[(٢)].

وأذكر أنني لقيت رجلاً من كملة الرجال[(٣)]، كانت محادثته وحدها أعظم باعثٍ على الاشتغال بالأدب والاستزادة منه، فقد كان فصيح اللسان، بارع البيان، وقد سمعته يتحدّثُ أربعين ساعة فما أخذْتُ عليه لحنةً! وكان يحفظ المعلّقاتِ وديوان الشّعراءِ

---

(١) النظرات ١/ ١١٠.

(٢) في سبيل الإصلاح: ٣٧.

(٣) هو الشيخ الجليل العلامة المتفنّن محمد الحسن وِلْد الدّدو حفظه الله.

الستّةِ وديوانَ الهذليين والحماسةَ والأصمعياتِ والمفضّلياتِ إلى آلافٍ من الأبيات الجياد، والفِقَر المستحسنة البليغةِ من النثر، وكان ذلك كله يجري في حديثه مجرى الماء في الروضة الغناء، ينساب انسياباً بلا تكلُّفٍ، ثمّ هو مع ذلك كلّه صاحب قدرة فريدة على النّظم، فكيف بربك تكون حالة من صحب مثل هذا أو تلمذ عليه؟

وقد أدّتْ ندرة هذا الضرب من شيوخ الأدب إلى افتقادنا لدروسٍ عامّة في الأدب يلقيها أشياخٌ حفظوا أدب أمتهم وتراثها، فأين منا اليوم دروس في الكامل أو البيان والتبيين أو الأمالي أو الحيوان أوالأغاني أو في دواوين الفحول من شعراء العربيّة؟!

لقد تحدّث الطنطاويّ ـ رحمه الله ـ عن شيوخه في العربيّة في مكتب عنبر في مقدمته لكتاب ظافر القاسمي عن المكتب فذكر من خبرهم العجب العجاب، فالشيخ عبدالرحمن سلام كان «نادرة الدنيا في طلاقة اللسان، وفي جلاء البيان»[1]، وسليم الجندي لم يعرفُ الشيخُ الطنطاويُّ تحت أديم السماء أعلم منه بالعربية وعلومها[2]، وعبدالقادر المبارك «كان الإمامَ في اللغة، والمرجعَ فيها، قيّد أوابدها، وجمّع شواردها، وحفظ شواهدها، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيّامهم، ووعى أخبارهم، وروى أشعارهم، وكان المفرد في بابته، لا نظير له في العلماء، تحسّ إذ تجالسه وتسمع منه كأنّ الأصمعيّ أو أبا عبيدة قد تمثّلا في جبّته، وكأنّ ما كنت تقرؤه في التاريخ قد عاد لك حتى رأيته

(١) مقدمات الشيخ علي الطنطاوي: ٣٩.

(٢) نفسه.

بالعيان»[1]، ومحمّد البَزْمُ «كان فصيحَ اللهجة، بيّن الأسلوب، تعرف ذلك من سلامه وكلامه. إذا سألك: كم الساعة؟ أدركت من سؤاله أنك أمام إمامٍ في العربيّة صارت الفصاحة له طبعا لا تطبّعاً»[2].

إنّ هؤلاء الأعلام لم يكونوا يدرّسون في جامعة، بل في معهد تعدل شهادته شهادة المرحلة الثانويّة! فإذا تأمّلتَ ذلك عرفت كيف خرج من ذلك المكتب أعلام الأدب كالطنطاوي والمحاسني والنشاشيبي وعبدالكريم الكرمي أبو سلمى وغيرهم.

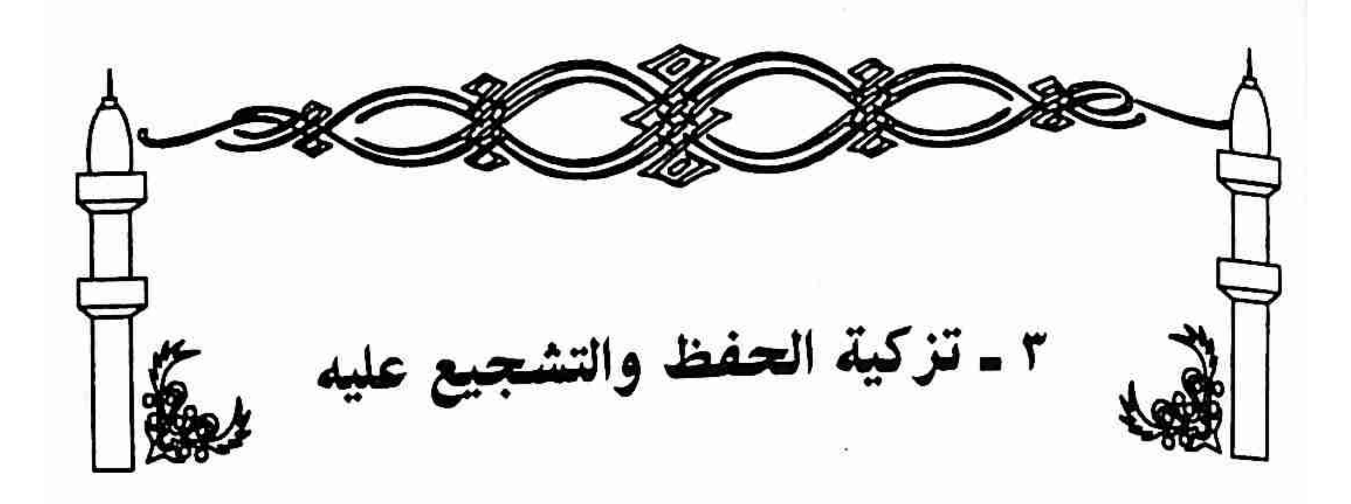
وإذا تأمّلت غياب أمثال هذه النماذج الرفيعة عن واقعنا التعليمي أدركت وجهاً من وجوه العلّة في ضعف الأدب وكساد سوقه؛ إذ كيف نطلب من مدرِّسٍ لم يعرفه الناس شاعراً مطبوعاً، ولا كاتباً مجيداً، ولا ناقداً بصيراً، ولا أقلّ من ذلك ولا أكثرَ، كيف نطلب منه أن يغرس الملكة الأدبية في نفوس الطلاب؟ «إنّ مثل هذا الطلب هَدْمٌ للمنطق الذي يقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه»[3].



(١) مقدمات الشيخ علي الطنطاوي: ٣٩، ٤٠.

(٢) نفسه: ٤١.

(٣) فكر ومباحث: ١٦٩.



٣ ـ تزكية الحفظ والتشجيع عليه

«والقاعدة عند القدماء أنَّ كل حافظ إمام.. فلما جاءت التربية الحديثة زهدتنا في الحفظ فأضرت بنا إضراراً شديداً»[١].

والأدب والنهضة الأدبية أحوج شيءٍ إلى كثرة الحفظ للمتخيّر من الآداب. ومن ثمَّ كان الشاعرُ الراويةُ في عُرْفِ الأولين أمتنَ من الشاعر غير الراوية، «يريدون أنّه إذا كان راويةً عَرَفَ المقاصد، وسَهُلَ عليه مأخذ الكلام، ولم يضقْ به المذهب، وإذا كان مطبوعاً لا عِلْمَ له ولا روايةَ ضَلَّ من حيث لا يعلم، وربما طَلَبَ المعنى فلم يصل إليه وهو ماثلٌ بين يديهِ، لضعفِ آلتِهِ، كالمُقْعَدِ يجد في نفسه القوّة على النهوض فلا تعينه الآلة.

وقد سئل رؤبة عن الفحل من الشعراء، فقال: هو الراوية، يريد أنه إذا روى استفحل»[٢].

وانظر كيف كانت عناية الأوائل بحفظ الشعر..

---

(١) الفنون الصغرى ١٦٥.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/١٩٧.

قال أبو نواس: ما قلتُ الشّعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟[1]

وقال أبو الزِّناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة، فقلت له: ما أرواك يا أبا عبدالله! فقال: ما روايتي مع رواية عائشة؟ ما كان ينزل بها شيءٌ إلا أنشدت شعراً[2].

وقال الشّعبي: لستُ لشيءٍ من العلوم أقلَّ رواية من الشعر، ولو شئت لأنشدتُ شهراً ولا أعيد بيتاً[3].

وكثرة الحفظ تفيد الأديب من وجهين:

أولهما: معرفة المعاني وتتبع مسالك القول، ومن ثَمّ الارتياضُ بالعربيّةِ، وحصولُ ملكةِ التصرّفِ فيها وفي معانيها.

قال ابن خلدون: «وهذه الملكةُ إنّما تحصل بممارسة كلام العربِ، وتكرُّرِهِ على السّمعِ، والتفطُّنِ لخواصِّ تراكيبِهِ، وليست تحصلُ بمعرفة القوانين العلميّةِ في ذلك التي استنبطها أهلُ صناعةِ البيانِ. فإنّ هذه القوانين إنّما تفيد علماً بذلك اللسانِ، ولا تفيدُ حصول الملكةِ بالفعلِ في محلّها»[4]، والخلاصةُ «أنَّ حصولَ ملكةِ اللسان العربيّ إنما هو بكثرةِ الحفظ من كلام العربِ حتى يرتسمَ في خيالِهِ المنوالُ الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسجَ هو

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٥٩.

(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٧٤.

(٣) العقد الفريد: ٦/ ١٥٨.

(٤) مقدمة ابن خلدون: ٥٦٢.

عليهِ، ويتنزَّلَ بذلك منزلةَ من نشأ معهم، وخالط عباراتِهم في كلامهم حتى حصلت له الملكةُ المستقرّةُ في العبارةِ عن المقاصدِ على نحو كلامهم»[1].

وثاني فوائد كثرة الحفظِ: تحرُّكُ اللسان بالشعر، بحيث يألفُهُ ويخِفَّ عليه.

وقد قال حكيم: إنّ اللسان إذا كثرت حركته، رقَّتْ عَذَبَتُه[2].

ولأجل ذلك قال ابن خلدون في مقدّمته: «ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصرٌ رديءٌ، ولا يعطيه الرّونقَ والحلاوة إلا كثرة المحفوظ، فمن قلّ حفظه أو عُدم لم يكن له شعر، وإنما هو نظم ساقط. واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ»[3].

ولا ينبغي أن يقتصر الحفظ على عصر دون عصر، قال ابن رشيق: «ولا يستغني المولّد عن تصفُّحِ أشعار المولّدين، لما فيها من حلاوة اللفظ، وقرب المأخذ، وإشارات المُلَحِ، ووجوهِ البديع الذي مثلُهُ في شعر المتقدمين قليلٌ، وإنْ كانوا هم فتحوا بابه... لا على أنْ تكونَ عمدةُ الشّاعر مطالعةَ ما ذكرته آخرَ كلامي هذا دون ما قدّمتُهُ، فإنه متى فعل ذلك لم يكن فيه من

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٥٦١.

(٢) ربيع الأبرار: ٤/٢٥٥، وعذبة اللسان: طرفُهُ.

(٣) ص: ٥٧٤.

المتانة وفضل القوّة ما يبلغ به طاقة من تبع جادّته، وإذا أعانته فصاحةُ المتقدِّم، وحلاوة المتأخِّر اشتدّ ساعده، وبعد مرماه»[1].

وأحسبُ أنَّ وفرةَ الشعرِ في أرض شنقيط، وكثرةَ الشعراء في تلك الديار راجعةٌ إلى ما عرف به الشناقطةُ من شدّة اعتنائهم بالحفظ، والاستكثار منه، وحسبُكَ أن أحمد بن الأمين الشنقيطيّ قد دوّن كتابه (الوسيط في تراجم أدباء شنقيط) إملاءً من ذاكرته! وفيه نحو ٤٥٠٠ بيت من الشعر الشنقيطيّ، وكان العبيدُ الأمّيّون يغنّون على الطبلِ مقاماتِ الحريريّ!

وكانت مريمُ بنت اللاعمة والدةُ الشيخ العلاّمة محمد سالم بن عبدالودود ـ حفظه الله ـ تحفظ القاموس، وقد استوعبتْه بطريقةٍ غريبةٍ، حيث كان والدها يرسلها من حين لآخر إلى خيمة أحد علماء الحيّ تنظر له معنى كلمةٍ في القاموس، فتعودُ وقد حفظت المادّة كلها!

وكان محمّد محمود بن أحمذيهْ يحفظ مقامات الحريريّ، والمستطرف، وكامل المبرّد، والوسيط في تراجم أدباء شنقيط، وديوان المتنبّي، وديوان أبي تمام، وديوان البحتريّ![2].

وأزيدُ على ما سبق الحديثَ عما رأيتُهُ وسمعتُهُ بحضرة معالي الشيخ الجليل العلامة الدكتور عبدالله بن الشيخ محفوظ بن بيّه أطال الله في عمره على طاعتِهِ، فهذا الشيخُ كأنّما زُويتْ له

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ١٩٨.

(٢) انظر في أخبار الشناقطة هذه: بلاد شنقيط.. المنارة والرباط للخليل النحوي ص: ٢٣٠ ـ ٢٣٤، والكتابُ مليء بعجائب صور التعليم والتعلّم في المحاضر الشنقيطيّة، وهو جدير بالقراءة.

العربيّةُ فصارتْ بين عينيهِ يأخذ منها ما شاءَ، وشواهدُها ودلالاتُ ألفاظِها ومشهور أبياتِها وعويصُ مسائلها منه على طرف الثُّمام[(١)].

ولا غرو فقد كان أوّلَ ما اشتغل به بعد قراءة القرآنِ ديوانُ ذي الرُّمّةِ، وقد حفظه كاملاً وقرأه على شيخ العربيّة في زمانه المرابط محمد بن سالم وِلْد الشين، وقد كانت لوِلْدِ الشين أنظامٌ كثيرة مطوّلةٌ في الأضداد والأبدال وجمع الجموعِ وغير ذلك من المسائل، ولم يبق منها اليوم إلا ما هو في صدرِ مولانا الشيخ ابن بيّه حفظه الله.

هكذا إذنْ كان الأوّلون والآخِرونَ من أهل العلم الأثباتِ عنايةً بالحفظِ وإقبالاً عليه، ولم يمنعهم ذلك من نباهةِ الذهنِ، وحسن الاستنباط والاستخراجِ، لأنّ الحفظ شيءٌ وجودةَ القريحةِ شيءٌ، ولاتضادّ بينهما، بل اجتماعُهما أدعى للنبوغ، ولا أعجبُ من شيءٍ عجبي ممن يزعمُ أنّ الحفظَ يفضي إلى البلادةِ وخمولِ الذهنِ والحَيْدةِ عن الإبداع، ولو كان ذلك كذلك لسقطَ من تاريخِ الأمة عشراتُ الآلاف من الحفّاظ الذين كانوا هم سدنة الشريعة وحملة العربية، وهم الذين فتّقوا المسائل، وحرّروا المناطات، واستنبطوا القوانين، وتأوّلوا مراد الله ورسوله ﷺ.

فاعجب بعد ذلك ما شئت وأنت ترى الإعراض عن الحفظ والزهد فيه قد أصبحَ مذهباً تربوياً «**لا يعدم له المعاصرون فلسفةً وتبريراً**»[(٢)].



(١) الثُّمامُ: نبتٌ، ويقالُ لما لا يعسر تناولُهُ: على طَرَف الثُّمام لأنّه لا يطول.

(٢) بلاد شنقيط المنارة والرباط: ٢٣٢.



٤ ـ تعاهد الناشئة بالتربية الأدبية القويمة

فالأدب والفصاحة والبيان ملكةٌ قبل أن يكونَ معلوماتٍ تحصَّلُ، أو قواعد تحفظُ، والناشئةُ في أوّل أعمارهم محضنٌ خصبٌ، وأرضٌ صالحةٌ لترسيخ الملكاتِ؛ «لأنّ السابقَ الأوّلَ للقلوبِ كالأساسِ للملكاتِ، وعلى حسب الأساسِ وأساليبِهِ يكون حالُ ما ينبني عليه»[1].

ولأجلِ ذلك كتب عمرُ رضي الله عنه إلى ساكني الأمصار: أما بعد، فعلِّموا أولادكم العوم والفروسيّة، وروّوهم ما سار من المَثَلِ، وحَسُنَ من الشِّعر[2].

وكان ابن عمرو وابنُ عباسٍ رضي الله عنهما يضربان أولادهما على اللحن[3].

وقد قيلَ: إنّ أهل الأندلس إنّما فاقوا غيرهم في اللسانِ، وبرعوا في الشعر والأدب، وراجت عندهم سوق العربيّة؛ لأنّهم يأخذون صبيانهم برواية الشعر، وحفظ قوانين العربيّة، فلا يخرجُ

---

(١) مقدّمة ابن خلدون: ٥٣٨.
(٢) البيان والتبيين: ٢/ ١٨٠.
(٣) طبقات ابن سعدٍ ٤/ ١٥٥، نقلاً عن أخبار النحويين للمقرئ: ١١٢.

الولدُ إلى الشبيبةِ إلا وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر، وبرّز في الخطّ والكتابِ[1].

وانظر ما حكاهُ الشيخ الطنطاويّ عن زمن طفولتِهِ وصباهُ لتُدركَ من أينَ اكتسب ذلك القلمَ الساحرَ والبيان الرصين، قال رحمه الله: «ولقد كنّا في المدارس الابتدائيّة نقرأ الكتب العلميّة الكبيرة حتى إني قرأتُ كتاب (حياة الحيوان للدَّمِيري) - وقد وقع في يدي اتفاقاً - قبل أن آخذ شهادتها، وقرأتُ (الأغاني) كلّه متخطياً إسناده وما لا أفهم منه في صيف السنة الثانويّة الأولى، وكنا يومئذ نحسن المراجعة في الخضري وفي المغني، وكان فينا من ينظم ويكتب... فما أكملنا الدراسة الثانويّة حتى قرأنا مع علومها النحو على المشايخ والبلاغة والفقه والأصول والحديث»[2].

وليس الطنطاويّ بِدعاً في هذا، فالتاريخُ مليءٌ بالنماذجِ التي تشهد لما أقول.

واستمعْ للشاعر الكبير محمد مهدي الجواهريّ وهو يروي خبر صباه إذْ كان في نحو العاشرةِ، يقول: «لقد تحتّم عليّ أن أحفظ عصر كلّ يوم خطبةً من نهج البلاغة، أو قطعةً من أمالي أبي عليٍّ القالي، أوّ قصيدة من ديوان المتنبّي... وفي الوقت نفسه كان ينبغي أن أدرس النحو والصرفَ»[3]، و«لقد كنتُ

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون: ٥٣٨ - ٥٤٠.

(٢) في سبيل الإصلاح: ٣٥، ٣٦.

(٣) مذكراتي: ١/٥٢.

أخطفُ من والدي في خلسةٍ عيون الشعرِ من كل الشعراءِ مَنْ تقدّم منهم ومن تأخّر»[1]، و«كنتُ أستنسخُ الدواوين والكتبَ الأدبيّة التي يصعبُ عليّ اقتناؤها أو الاحتفاظ بها لفترة طويلةٍ... وكنتُ محاطاً بالشعر والشعراء أينما ذهبت، وفي أي بيت دخلتُهُ وعرفتُهُ كنتُ أجدهم أمامي: من عهد امرئ القيس في الجاهلية، والكُمَيْتِ ودِعْبل في العهد الأموي، وكلِّ عباقرة الشعر في العهد العباسيّ والأندلسيّ، وعهد شعراء المماليك... حتى عهد المرحلةِ التي كنتُ أعيشها»[2]، «وحيثما ذهبتُ كان أترابي وحتّى من درستُ عليهم يتسلّون باختبار حافظتي الشعريّة، وكانوا يتلون عليّ أربعة أو خمسة بل حتى سبعة أبياتٍ وعليّ أن أعيدها على الفور، فأعيدها فعلاً ولمرّة واحدةٍ! ويصل الرهان فيما بينهم بهذا الصدد حدّا بعيداً، فقد تقدّم صديقٌ عزيزٌ عليّ... ووضع أمام عيني ليرةً رشاديّةً ذهبيّةً وقال: إنها لك إذا حفظتَ كلّ هذه الأبيات في يومٍ واحدٍ... أخذت حزمة الورق تلك وفيها أكثر من أربعمئة بيتٍ من الشعر وعدتُ إلى المجلس في اليوم التالي وبدأت أتلوها عن ظهر قلب!»[3].

أمن عجبٍ أن تُخرجَ هذه النشأة الأدبيّة شاعراً فحلاً بحجمِ الجواهريّ؟

لا والله.

---

(١) مذكراتي: ١/ ٦٨.
(٢) مذكراتي: ١/ ٦٩.
(٣) مذكراتي: ١/ ٧٠.

إنَّ نهضةً أدبيّةً مرجوّةً لن تكونَ حتّى نتمكّنَ من إشرابِ أبنائنا حبّ الفصحى، وحتّى نعوّدهم على سماعِ الشعر والنّثرِ، ونروّيهم بليغ القولِ منذ بداياتِ وعْيهم وإدراكهم.





٥ ـ عناية ذوي النفوذ والتأثير

فحين يهتمّ بالأدب والأدباء السلاطينُ والأمراءُ والوزراءُ والوجهاءُ والأعيانُ وأرباب الأموال يؤذن ذلك بنهضةٍ أدبيّةٍ عظيمة. وعلى هذا كان الأولون.

فقد «كان للرشيد مجلس للأدب بلغ لألاؤه أطراف الامبراطورية... حتى ضاقت عليهم بغداد بما رحبت، فاضطر يحيى بن خالد إلى امتحانهم في الشعر وترتيبهم في الجوائز ليخفّف من زحمة الأدباء»[(١)].

«وكان للصاحب بن عبّاد مجلسٌ للشّعر لا يغشاه إلا من حفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، ومع هذا الشّرط القاسي كان يجتمع على سِماطِهِ كلَّ يوم ألفٌ من رجالاتِ الأدب والعلم والكلام... ونَفَقَ بِرْذَوْنٌ[(٢)] لأديب من أدباء مجلسه فرثاه شعراء

---

(١) وحي الرسالة: ٣/ ٣٤.

(٢) نَفَقَ الرجل أو الدابة نفوقا: ماتا. والبرذون: الدابة، والجمع: براذين.

الحضرة بخمسين قصيدة»[1].

وكان المأمونُ ينتقدُ ما تكتبُهُ الكتّابُ، فيُسقطُ من يلحنُ، ويحطُّ مقداره، ويرفعُ من أتى بما هو أجودُ في العربيّةِ[2].

وتأمّلْ ما قاله أسامةُ بن مَعْقِل: كان السّفّاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع أهلها، ويثيبهم عليها، فحفظتُ ألف رسالةٍ وألفَ خطبةٍ طلباً للحظوة عنده فنلتها. وكان المنصور بعده معنيّاً بالأخبار وأيّام العرب يُدني أهلها ويجزيهم عليها، فلم يبق شيء من الأسماء والأخبار إلا حفظتُهُ طلباً للقُرْبة منه فظفرت بها. وكان موسى مغرماً بالشعر يستخلص أهله، فما تركت بيتاً نادراً ولا شعراً فاخراً ولا نسيباً سائراً إلا حفظته... ولم أر شيئاً أدعى إلى تعلُّمِ الآداب من رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها. ثم زهدَ هارون في هذه الأربعة فأنسيتها كأني لم أحفظ منها شيئا»[3].

---

(١) وحي الرسالة: ٣/ ٣٥. وانظر اشتراط الصاحب على ندماه حفظ عشرين ألف بيت في خبره مع الخوارزميّ (وفيات الأعيان ٤/ ٤٠١)، وصاحبُ البرذون النّافقِ هو أبو عيسى ابن المنجّم، وقد عقد الثعالبيّ في يتيمة الدهر (٣/ ٢٥٣ ـ ٢٦٩) فصلاً عنوانُهُ (البرذَونيّات) أنشد فيه عشراتِ الأبياتِ من هذه المراثي. ولمّا انتقل الصاحب إلى داره الجديدةِ بأصبهان تنافس شعراء الحضرة في وصفها، وقد أنشد الثعالبيّ في اليتيمة (٣/ ٢٤٠ ـ ٢٥٣) أزيدَ من مئتي بيت هي مختاراتٌ من نحو عشرين قصيدة في وصف الدار.

(٢) تنبيه الألباب: ٧٨.

(٣) وحي الرسالة: ٣/ ٣٣.

والأمر ليس مقصوراً على الأمراء والسلاطين بل كلُّ ذي وظيفة خطيرة، ومال جزيل، ووجاهة ظاهرة مخاطب بمثل هذا. . فلو اعتنت هذه الطوائف بالأدب، وأكرمت الأدباء، وفرّغت طوائف منهم لمشاريع بعينها لتحرّك الأدب حركة عظيمة.





٦ - إشاعةُ الأدب في طبقات المجتمع كافّة

فمتى ما شاع الأدب والاشتغال به في سائر طبقات المجتمع، وعمّ الصغير والكبير، والغنيّ والفقير، والأمير والحقير، ولم يبق محصوراً في نخبةٍ تشتغل به كان ذلك بشير نهضة أدبية عظيمة.

وفي زمن مضى كانت طبقات المجتمع كافّةُ حفيّةً بالشّعر.. وقد حُكي عن المعتمد أنّه كان على ظهر سفينة مع وزير له، فنظر إلى الماء ممتدّاً من كل ناحية، فقال لوزيره: أجز

حـفّـهـا الـمـاءُ إذ الـمـاء زَرَدْ

فتحيّر الوزير، وكانت جاريةٌ تمسح سطح السفينة قد سمعتهما، فقالت: أتأذن لي أن أجيز؟ قال: نعم، فقالت:

أيّ درع لـقـتـالٍ لـو جـمـدْ

فاستحسن المعتمد ذلك منها[1].

وها هو ديك الجنّ ولما يزل صبيّاً لقيَه أبو تمام وهو طفل يلعب، ويدّعي قول الشعر، فقال: إن كنت شاعراً كما تقول فأجز:

---

(١) انظر القصة في نفح الطِّيب ٢١١/٤.

فـرَّقـوا بـيـن مـن أحـب وبـيـنـي

فقال: أبعّد أم أُقرّب؟ قال: بعِّد، فقال:

مـثـلَ بُـعْـدِ الـسِّـمـاك والـفـرقـديـنِ

فقال: قَرِّب، فقال:

مـثـلَ مـا بـيـن حـاجـبـيّ وعـيـنـي[1]

ومن لطيف ما يُروى في هذا المعنى ما ذكره صاحب بدائع البدائِهِ[2] من أنّ أبا نواسٍ خرج يوماً فلقي في طريقه أعرابياً راعياً معه غُنيْماتٌ، فقال أبو نواسٍ:

أيا صاحِبَ الذَّودِ اللواتي تسوقُها   بِكمْ ذلك الكَبْشُ الذي قد تقدَّما

فقال الأعرابيُّ:

أبيعُكَـهُ إنْ كنتَ تبغي شراءَهُ   ولم تكُ مَزّاحاً بعشرينَ دِرْهما

فقال أبو نُواسٍ:

أخَذْتَ هداكَ اللهُ رُجْعى جوابِنا   فأَحْسِنْ إليـنـا إنْ أردْتَ تَكَرُّمـا

فقال الأعرابيُّ:

أحُطُّ من العشرينَ خَمْساً لأنّني   أراكَ ظريفاً، أخْرِجَنْها مسلَّما

فقيل للأعرابيّ: أتدري من يكلّمك منذ اليوم؟ فقال: لا، فقيل: أبو نُواسٍ، فرجع فلحقَهُ ووهبه الكبش.

---

(١) بدائع البدائه: ٦٨.

(٢) ص: ٤٠.

فانظرْ إلى أعرابيٍّ بين غُنيماتِهِ كيف بصرُهُ بالشعر والأدب!

وهذا ابن جاخٍ الصبّاغ يخرج مع المعتمد بن عباد، فينأى بالمعتمد فرسه، فيرى شجرةَ تينٍ قد أينعت وبرزت منها ثمرة، فيسدِّدُ إليها عصا كانت في يده، فيصيبها وتثبت في أعلاها. فسرَّ ذلك المعتمد وأطربه، فالتفت ليري أصحابه فإذا هو بابن جاخ الصبّاغ فقال له: أجز

كـــأنـــهـــا فـــوق الـــعـــصـــا

فقال بديهةً:

هـــامـــةُ زنـــجـــيٍّ عـــصـــى[1]

وابن جاخ هذا «من أعاجيب الدّنيا، كان لا يقرأ ولا يكتبُ»[2]!، وكان صاحب حانوتٍ يشتغل فيه بالصباغةِ، وقيل: إنّ الوزير أبا بكر بن عمّارٍ كان كثير التطلّب لما يصدر من أرباب المهنِ من الأدب الحسنِ، فمرّ بحانوتِ ابن جاخ الصبّاغ وهو آخذ في صباغَتِهِ، وكان ابن جاخ أسودَ البشرةِ وأبو بكر أبيضها، فأخرج أبو بكرٍ ذراعَه، وجعلها بإزاء ذراع ابن جاخ وقال:

كـــمْ بَـــيْـــنَ زَنْـــدٍ وزَنْـــدِ؟

فقال ابن جاخ:

مـــا بـــيـــن وَصْـــلٍ وصَـــدِّ

---

(١) بدائع البدائه: ٧٣.

(٢) نفح الطيب ٣/ ٤٥٢.

فعجبَ أبو بكرٍ من سرعةِ ارتجالِهِ مع مُضِيِّهِ في عملِهِ[1].

فها قد رأيت أيها القارئ العزيز كيف امتلأ بالأدب صبيّ وجارية وراعٍ وصبّاغ!



(1) انظر الخبر في بدائع البدائه: ٧٤، وعنه نقل المقّري في نفح الطيب ٦٠٨/٣.



وصايا الأعلام
للمشتغلين بالأدب



وصية عليّ بن عبدالعزيز الجرجاني

(ت٣٩٢ هـ)

«الشّعْر علم من علوم العرب يشترك فيه الطّبع والرّواية والذّكاء، ثم تكون الدُّرْبَةُ مادّةً له، وقوّةً لكلّ واحدٍ من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرِّز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبَتُهُ من الإحسان... ولستُ أفضّل في هذه القضية بين القديم والمحدث، والجاهليّ والمخضرم، والأعرابيّ والمولّد، إلا أني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمسَّ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقرَ، فإذا استكشفت عن هذه الحال وجدت سببها والعلّة فيها أنّ المطبوع الذّكيّ لا يمكنُهُ تناولُ ألفاظ العربيّ إلا روايةً، ولا طريق إلى الرواية إلا السّمع، وملاك السّمع الحفظ»[١].



(١) الوساطة: ١٥.



وصية أبي الحسن ابن رشيق القيراوني

(ت ٤٥٦هـ)

«وليأخذ نفسه ـ أي الشاعر ـ بحفظ الشعر والخبر، ومعرفة النّسب، وأيّام العرب؛ ليستعمل ذلك فيما يريده من ذكر الآثار، وضرب الأمثال، وليَعْلَق بنَفَسِه بعضُ أنفاسهم، ويَقْوى بقوّة طباعهم، فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدّمين يفْضُلُ أصحابه برواية الشّعر، ومعرفة الأخبار، والتلمذة بمن فوقه من الشعراء... وقد سُئِل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء فقال: هو الراويةُ، يريد أنّه إذا روى استفحل. قال يونس بن حبيب: وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيّد شعره معرفة جيّدِ غيره، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة... وقال الأصمعيّ: لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ»[١].

«ولا يكون الشّاعرُ حاذقاً مجْواداً حتى يتفقّد شعره، ويعيد فيه نظره، فيُسقط رديّه، ويثبت جيّده، ويكون سَمْحاً بالرّكيك منه، مطَّرِحاً له، راغباً عنه، فإنّ بيتاً جيّداً يقاوم ألفي رديء.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ١٩٧.

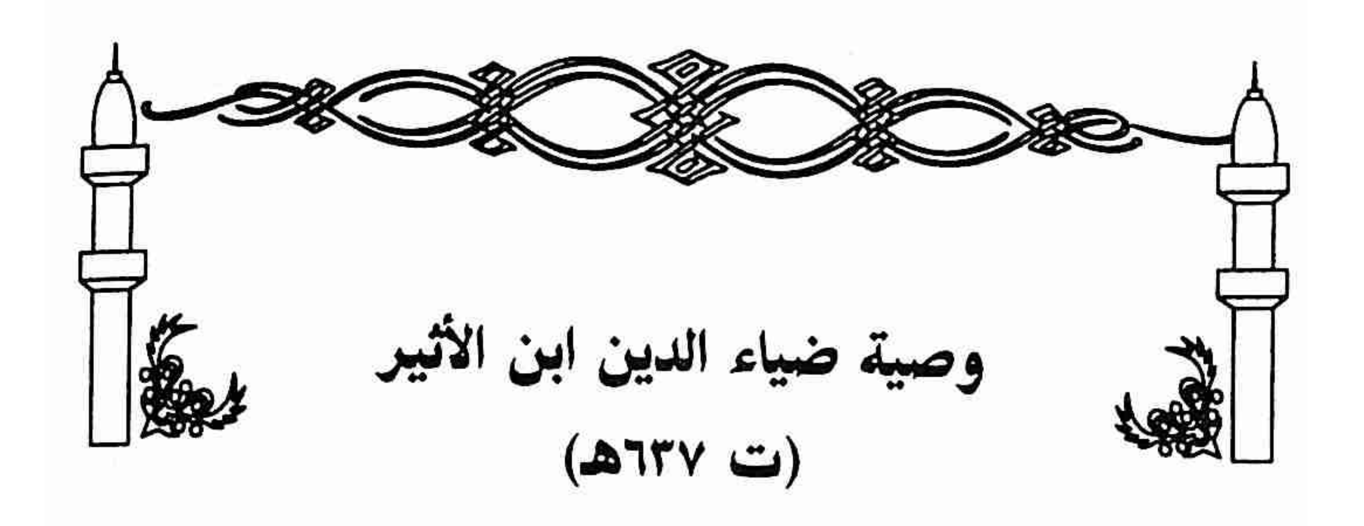
وقال امرؤ القيس وهو أول من زعموا أنه اختبر له، وعُلِمَ به أنّه يكون أفضل الشّعراء والمقدَّمَ عليهم:

أذودُ القوافيَ عنّي ذِيادَا	ذِيادَ غلامٍ جريءٍ جوادا
فلمّا كَثُرْنَ وعَنَّيْنَه	تَخَيَّرَ منهنَّ شتّى جِيادا
فأعزلُ مَرْجانَها جانبا	وآخذُ من دُرِّها المستجادا

فإذا كان أشعرُ الشّعراء يصنع هذا ويحكيه عن نفسه، فكيف ينبغي لغيره أن يصنع؟»[1].



(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٢٠٠.



وصية ضياء الدين ابن الأثير

(ت ٦٣٧هـ)

«اعلم أنّ للكتابة شرائط وأركاناً. أما شرائطُها فكثيرة... وليس يلزم الكاتب أنْ يأتي بالجميع في كتابٍ واحدٍ، بل يأتي بكلٍّ نوعٍ من أنواعها في موضعه الذي يليقُ به.

وأمّا الأركان التي لا بدّ من إبداعِها في كلّ كتابٍ بلاغيٍّ ذي شأنٍ فخمسة:

الأول: أن يكونَ مَطْلعُ الكتابِ عليه جِدَّةٌ ورشاقةٌ، فإنّ الكاتب من أجاد المطلع والمقطع.

الرّكن الثاني: أن يكون الدعاء المودعُ في صدْر الكتابِ مشتقّاً من المعنى الذي بُني عليه الكتاب.

الرّكنُ الثّالث: أن يكون خروج الكاتب من معنىً إلى معنىً برابطةٍ؛ لتكونَ رقاب المعاني آخذةً بعضُها ببعضٍ، ولا تكون مقتضبة.

الرّكن الرابع: أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقةٍ بكثرةِ الاستعمال، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبةً، فإنّ ذلك عيبٌ فاحشٌ، بل أريد أن تكون الألفاظُ المستعملةُ مسبوكةً سبْكاً

غريباً يظنُّ السامع أنها غير ما في أيدي النّاس، وهي مما في أيدي النّاس. وهناك معترك الفصاحة الذي تُظهر فيه الخواطرُ براعتَها، والأقلام شجاعتَها.

الرّكن الخامس: ألا يخلوَ الكتابُ من معنىً من معاني القرآن الكريم والأخبار النبويّة، فإنّها معدنُ الفصاحةِ والبلاغةِ... وهذا الركنُ يختصّ فيه الكاتب دون الشاعرِ؛ لأنّ الشاعر لا يلزمُهُ ذلك.

وإذا استكملتَ معرفةَ هذه الأركانِ الخمسةِ، وأتيتَ بها في كل كتاب بلاغيّ ذي شأنٍ، فقد استحققت حينئذٍ فضيلةَ التقدّم، ووجب لك أن تسمّيَ نفسك كاتباً»[١].

وقال ابن الأثير في فصل عنوانه: في الطريق إلى تعلم الكتابة:

«هذا الفصل هو كنزُ الكتابةِ ومنبعُها، وما رأيتُ أحداً تكلّم فيه بشيءٍ، ولما حُبِّبتْ إليّ هذه الفضيلةُ، وبلّغني الله منها ما بلّغني وجدتُ الطريق ينقسم فيها إلى ثلاث شعبٍ:

الأولى: أن يتصفّحَ الكاتبُ كتابةَ المتقدّمين، ويطّلع على أوضاعِهم في استعمال الألفاظِ والمعاني، ثم يحذوَ حذوَهم، وهذه أدنى الطبقات عندي.

الثانية: أن يمزجَ كتابةَ المتقدّمين بما يستجيده لنفسه من زيادةٍ حسنةٍ إمّا في تحسين ألفاظٍ، أو في تحسين معانٍ. وهذه

---

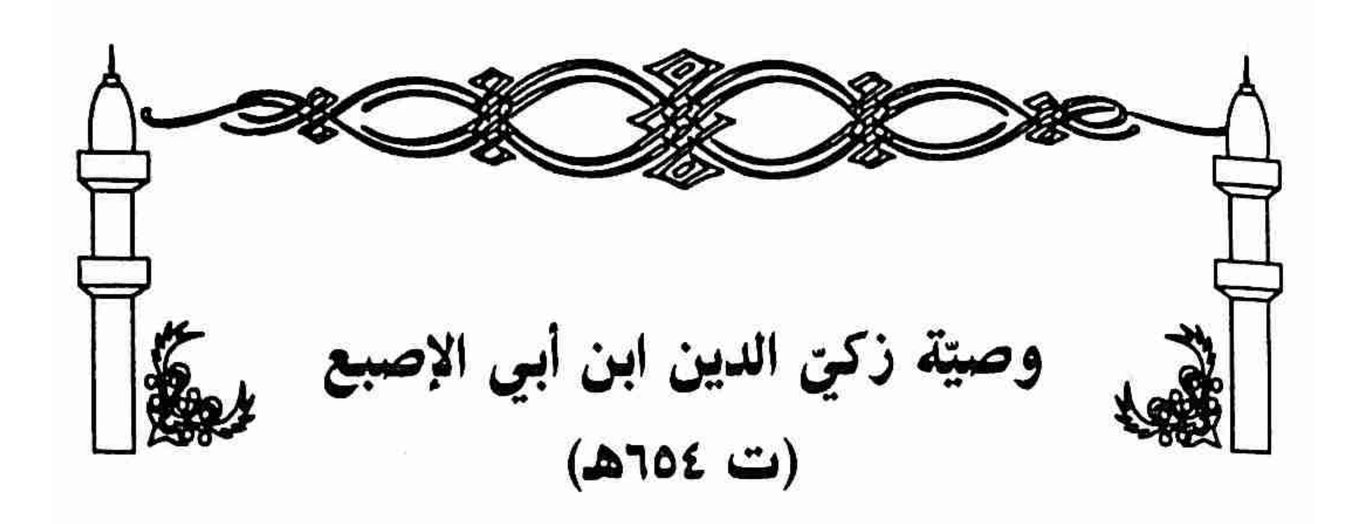
(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٢١-١٢٥ بشيء من التصرف.

هي الطبقةُ الوسطى، وهي أعلى من التي قبلها.

الثالثة: ألا يتصفّح كتابةَ المتقدّمين، ولا يطّلع على شيءٍ منها، بل يصرفُ همّه إلى حفظ القرآن الكريم، وكثيرٍ من الأخبار النبويّة، وعدّة من دواوين فحولِ الشّعراء، ممن غلب على شعره الإجادة في المعاني والألفاظِ، ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة، أعني القرآن والأخبار النبويّة والأشعار، فيقومُ ويقعُ، ويخطئُ ويصيبُ ويضلُّ ويهتدي، حتى يستقيمَ على طريقةٍ يفتتحها لنفسه. وأخْلِقْ بتلك الطريقةِ أن تكونَ مبتدعةً غريبةً، لا شَرِكةَ لأحدٍ من المتقدّمين فيها، وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد، وصاحبها يعدُّ إماماً في فنّ الكتابة، كما يُعَدُّ الشافعيُّ وأبو حنيفةَ ومالكٌ رضي الله تعالى عنهم وغيرهم من الأئمة المجتهدين في علم الفقه، إلا أنّها مستوعرةٌ جدّاً، ولا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لساناً هجّاماً، وخاطراً رَقّاماً»[1].



(١) المثل السائر: ١/١٢٥، ١٢٦. وقولُه: (رقّاماً) من الرَّقْمِ بمعنى الكتابة.



وصيّة زكيّ الدين ابن أبي الإصبع

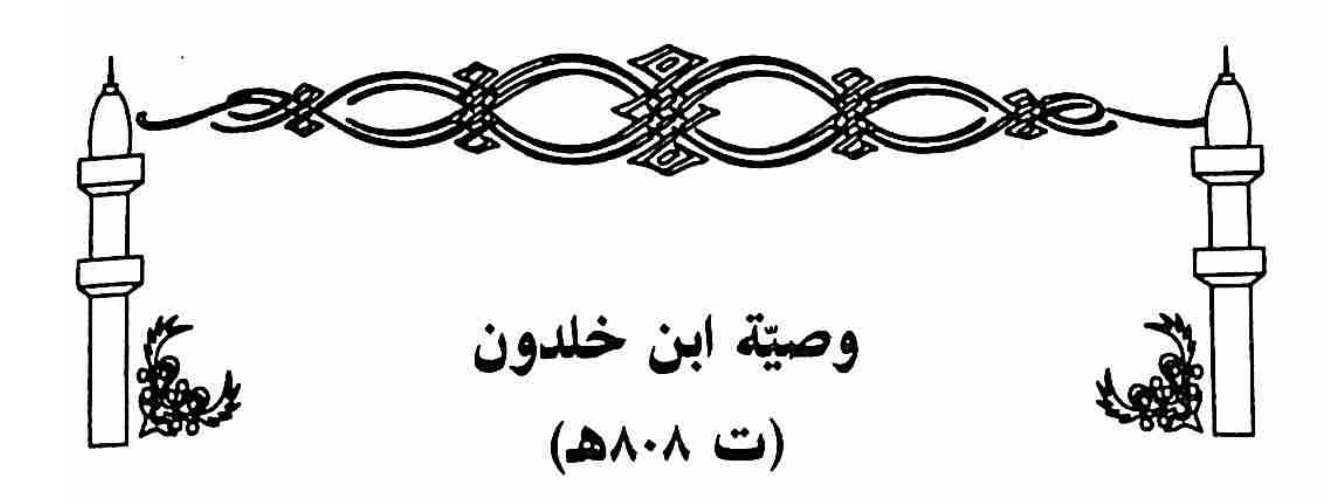
(ت ٦٥٤هـ)

«ينبغي لك أيها الراغب في العمل، السائل فيه عن أوضح السُّبُل أن تحصّل المعنى عند الشروع في تحبير الشعر، وتحرير النثر قبل اللفظ، والقوافي قبل الأبيات. ولا تُكْرِهِ الخاطر على وزنٍ مخصوصٍ ورَوِيٍّ مقصود... ولا تعملْ نظماً ولا نثراً عند الملل، ولا تؤلف كلاماً وقت الضجر، فإنّ الكثير معه قليل، والنفيس به خسيس. والخواطر ينابيع إذا رُفِقَ بها جَمَّتْ، وإذا عُنِّف عليها نزعت، واكتب كلّ معنىً يسنحُ، وقيِّدْ كلَّ فائدة تعرض، فإنّ نتائج الأفكار تعرض كلمعةِ البرقِ، ولمحة الطَّرف إن لم تقيَّدْ شَرَدتْ ونَدَّتْ، وإن لم تُستَعْطَفْ بالتكرار عليها صَدَّتْ، والترنّم بالشّعر مما يعين عليه»[1].



---

(١) تحرير التحبير: ٤١٢، ٤١٣.



وصيّة ابن خلدون

(ت ٨٠٨هـ)

«اعلم أنّ لعلم الشعر وإِحْكام صناعته شروطاً أولها الحفظُ من جنسه، أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكةٌ يُنسج على منوالها، ويُتخيَّرُ المحفوظ من الحرّ النقيّ الكثير الأساليب، وهذا المحفوظ المختار أقلُّ ما يكفي فيه شعر شاعرٍ من الفحول الإسلاميين مثلِ ابن أبي ربيعة، وكثيّر، وذي الرُّمّة، وجرير، وأبي نواس، وحبيبٍ، والبحتريّ، والرضيّ، وأبي فراسٍ وأكثره شعرُ كتاب الأغاني؛ لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلاميّة كلِّه والمختارَ من شعر الجاهليّة.

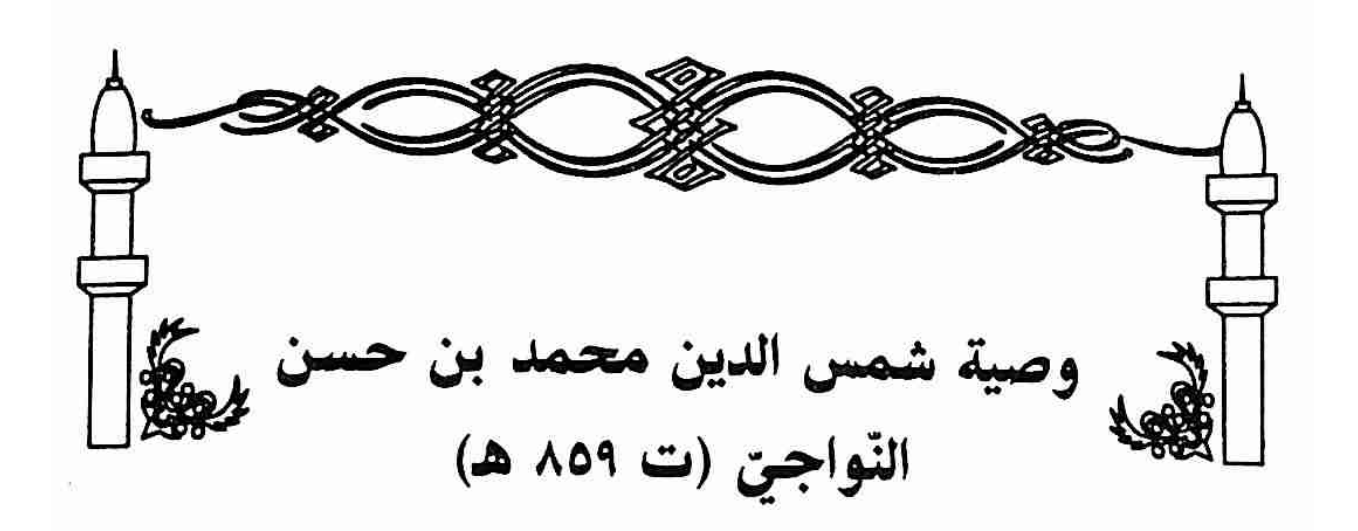
... ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النّظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكتُهُ وترسخ. وربما يقال: إنّ من شرطه نسيانَ ذلك المحفوظ لتُمحى رسومُهُ الحرفيّة الظاهرة؛ إذْ هي صادرة عن استعمالها بعينها، فإذا نسيها وقد تكيّفت النفس بها انتُقشَ الأسلوب فيها كأنّه منوالٌ يؤخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أُخر ضرورة.

ثم لا بدّ له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من

المياه والأزهار، وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعه وتنشيطها بملاذّ السرور. ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط، فذلك أجمع له، وأنشط للقريحة»[1].



(١) مقدمة ابن خلدون: ٥٧٤.



وصية شمس الدين محمد بن حسن النّواجيّ (ت ٨٥٩ هـ)

صَنَّفَ النواجيّ رسالة سمّاها (مقدّمة في صناعة الشعر والنثر) وقد ضمّنها جملة من الوصايا، أنتخب لك منها ما يلي:

«ومتى عصى الشعر فاتركه، ومتى طاوعك فعاوده، وروِّحِ الخاطرَ إذا كلَّ، واعمل في أحبّ المعاني إليك، وفي كل ما يوافق طبعك، فالنفوس تعطي على الرغبة، ولا تعطي على الإكراه»[1].

«واكتب أولاً ثمّ هذّب ثانيا. والتهذيب عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله، نظماً ونثراً، وتنقيحه، وتغييرُ ما يجب تغييرُه، وحذف ما ينبغي حذفه، وإصلاح ما يتعيّن إصلاحه، وكشف ما يشكل من غريبه وإعرابه، وتحرير ما يدقّ من معانيه، فإنّ الكلام إذا كان موصوفاً بالمهذّب، منعوتاً بالمنقّح علت رتبته وإن كانت غير مبتكرة»[2].

---

(١) المقدمة: ٣٠.

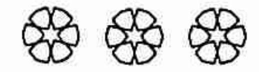
(٢) المقدمة: ٣١.

«وأجاد أبو تمام حيث أشار إليه ـ أي: التهذيب ـ بقوله:

خذها ابنةَ الفكْر المهذّب في الدّجى   والليلُ أسودُ رقعةِ الجلبابِ

فإنّه خصّ تهذيب الفكر بالدّجى لكون الليل تهدأ فيه الأصواتُ، وتسكنُ الحركاتُ؛ فيكون الفكر فيه مجتمعاً، ومرآةُ التهذيب فيه صقيلةً، لخلوّ الخاطر، وصفاء القريحة، لا سيّما وسط الليلِ، والنفسُ قد أخذت حقّها من الراحة، بعد نيل قسطها من النّوم، وخفّ عليها ثقل الغذاء، وصحّ ذهنها، وصار صدرها منشرحاً، وقلبُها بالتأليف منبسطاً، وما قدّموا وسط الليل في التأليف على السّحَر ـ مع ما فيه من رقّة الهواء، وخفّة الغذاء، وأخذ النفس سهمها من الراحة ـ إلا لما يكون فيه من انتباه أكثر الحيوان الناطق، وارتفاع معظم الأصوات، وجرس الحركات، وتقشّع الظلماء بطلائع الأضواء، وبذلك ينقسم الفكر، ويشتغل القلب، ووسط الليل خالٍ مما ذكرناه»[1].

«وقال أبو عبادة البحتريّ: .. حتى قصدتُ أبا تمّام... فكان أول ما قال لي: .. وإذا شرعت في التأليف تغنّ بالشعر، فإنّ الغناء مضماره الذي يجري فيه... وإذا عارضك الضّجر فأرحْ نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغُ القلب، ولا تنظم إلا بشهوةٍ، فإنّ الشّهوة نعم المعينُ على النظم»[2].



---

(١) المقدمة: ٤٠.

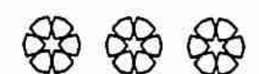
(٢) المقدمة: ٤٠ ـ ٤٢.



وصية مصطفى لطفي المنفلوطي

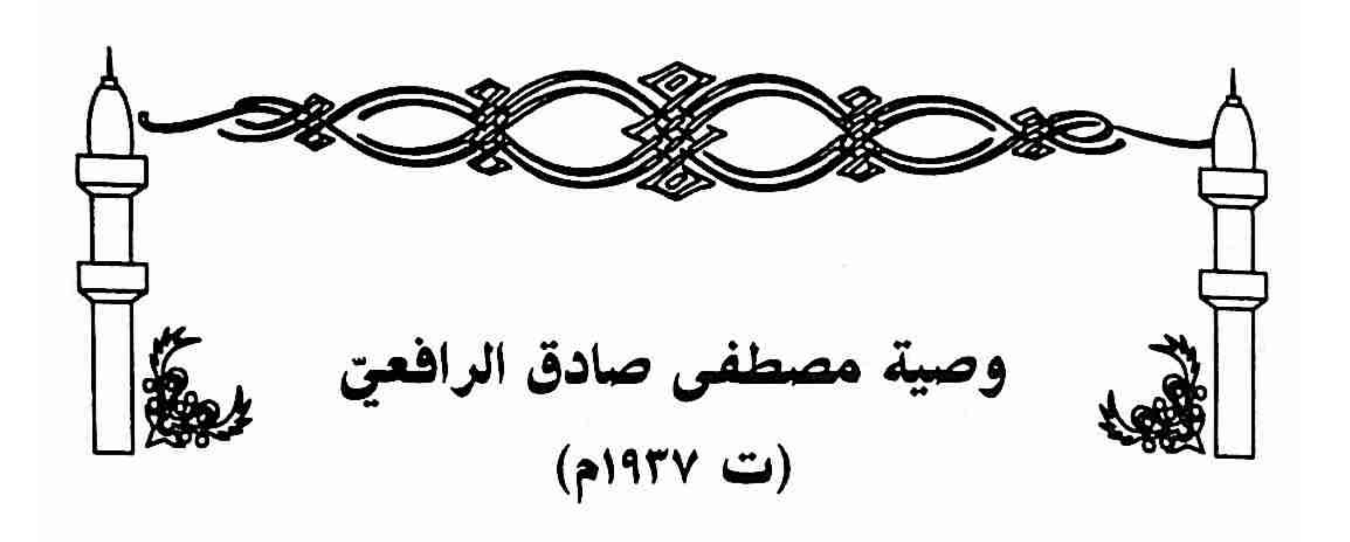
(ت ١٩٢٤م)

«وبعد فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربيّ سبيلاً إليه إلا مزاولةَ المنشآت العربية منثورها ومنظومها، والوقوفَ بها وقوف المتثبّتِ المتفهِّم لا وقوف المُتَنَزِّه المتفرج، فإن رأيت أنك قد شغفت بها، وكلفت بمعاودتها والاختلاف إليها، وأن قد لذّ لك منها ما يلَذُّ للعاشق من زورة الطّيف في غِرَّة الظّلام، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب، فامض لشأنِكَ ولا تَلْوِ على شيءٍ مما وراءك حتى تبلغ من طَلِبَتِكَ ما تريد»(١).



---

(١) النظرات: ١/ ١١٠.



وصية مصطفى صادق الرافعيّ
(ت ١٩٣٧م)

* «إنك تريد امتلاك (ناصية الأدب) كما تقول. فينبغي أن تكون لك مواهب وراثيّة تؤديك إلى هذه الغاية. وهي ما لا يعرف إلا بعد أن تشتغل بالتحصيل زمناً، فإنْ ظهر عليك أثرُها وإلا كنت أديباً كسائر الأدباء الذين يستعيضون من الموهبة بقوّة الكسب والاجتهاد. فإذا رغبت في أقصر الطّرق إلى ذلك فاجتهد أن تكون مفكّراً منتقداً، وعليك بقراءة كتب المعاني قبل كتب الألفاظ، وادرس ما تصل إليه يدك من كتب الاجتماع والفلسفة الأدبيّة في لغةٍ أوروبيّة أو فيما عُرِّبَ منها. واصرف همّك من كتب الأدب العربيّ بادئ ذي بدء إلى كليلةَ ودمنة، والأغاني، ورسائل الجاحظ، وكتاب الحيوان والبيان والتبيين له، وتفقّه في البلاغة بكتاب المثل السائر، وهذا الكتاب وحده يكفل لك ملكة حسنةً في الانتقاد الأدبيّ، وقد كنت شديد الولوع به.

ثمّ عليك بحفظ الكثير من ألفاظ كتاب نجعة الرائد لليازجيّ، والألفاظ الكتابيّة للهمذانيّ، وبالمطالعة في يتيمة الدّهر للثعالبي، والعقد الفريد لابن عبد ربّه، وكتاب زهر الآداب.

ورأسُ هذا الأمر بل سرُّ النّجاح فيه أن تكون صبوراً، وأن تعرف أنَّ ما يستطيعه الرّجلُ لا يستطيعه الطفلُ إلا متى ما صار رجلاً، وبعبارة صريحة إلا من انتظر سنواتٍ كثيرة. فإنْ دأبتَ في القراءة والبحث، وأهملتَ أمر الزمن طال أو قصر انتهى بك الزمنُ إلى يوم يكون تاريخاً لمجدك، وثواباً لجِدِّك»[1].

* «الإنشاء لا تكون القوّة فيه إلا عن تعبٍ طويلٍ في الدّرس، وممارسة الكتابة، والتقلّب في مناحيها، والبَصَرِ بأوضاع اللغة، وهذا عملٌ كان المرحوم الشيخ عبده يقدِّرُ أنّه لا يتمّ للإنسان في أقلَّ من عشرين سنة، فالكاتب لا يبلغ أن يكون كاتباً حتى يقطعَ هذا العمر في الدّرس وطلب الكتابة.

فإذا أوصيتُكَ فإنّي أوصيك أن تكثر من قراءة القرآن ومراجعة الكشّاف (تفسير الزمخشريّ)، ثم إدمان النّظر في كتاب من كتب الحديث كالبخاريّ أو غيره، ثم قَطْعِ النفَس في قراءة آثار ابن المقفّع (كليلة ودمنة، واليتيمة، والأدب الصغير)، ثم رسائل الجاحظ، وكتاب البخلاء، ثم نهج البلاغة، ثم إطالة النظر في كتاب الصّناعتين للعسكريّ، والمثل السائر لابن الأثير، ثم الإكثار من مراجعة أساس البلاغة للزمخشريّ. فإنْ نالت يدك مع ذلك كتاب الأغاني أو أجزاءً منه، والعقد الفريد، وتاريخ الطبريّ فقد تمّت لك كتب الأسلوب البليغ.

اقرأ القطعة من الكلام مِراراً كثيرة ثم تدبَّرْها وقلِّبْ تراكيبها ثم احذف منها عبارة أو كلمة وضع من عندك ما يسدُّ مسدّها ولا

---

(١) رسائل الرافعي: ١٥، ١٦.

يقصر عنها، واجتهد في ذلك، فإن استقام لك الأمر فترقَّ إلى درجة أخرى، وهي أن تعارض القطعة نفسها بقطعة تكتبها في معناها وبمثل أسلوبها، فإن جاءت قطعتك ضعيفة فخذ في غيرها ثم غيرها حتى تأتي قريباً من الأصل أو مثله. اجعل لك كل يوم درساً أودرسين على هذا النحو فتقرأ أولاً في كتاب بليغ نحو نصف ساعة ثم تختار قطعة منه فتقرؤها حتى تقتلها قراءة، ثم تأخذ في معارضتها على الوجه الذي تقدم... واقطع سائر اليوم في القراءة والمراجعة. ومتى شعرتَ بتعبٍ فدع القراءة أو العمل حتى تستجمَّ ثم ارجع إلى عملك، ولا تهملْ جانب الفكر والتصوّر وحسن التخييل»[1].

* «وما أرى أحداً يفلح في الكتابةِ والتّأليف إلا إذا حكَم على نفسه حُكْماً نافذاً بالأشغالِ الشّاقةِ الأدبيّة كما تحكم المحاكم بالأشغال الشاقّة البدنيّةِ. فاحكم على نفسك بهذه الأشغال سنتين أو ثلاثاً في سجن الجاحظ أو ابن المقفّع أو في غيرهما، وهبها كانت في أبي زعبل أو طرّة!»[2].

* «وأمّا ضعفُ ابنك في الإنشاء فلأن الإنشاءَ فكرة ولفظ، ومادام صغيراً ففكْرُهُ ضعيفٌ، ولا سبيل إلى تقويته إلا بأساليب خاصّة. وأحسن طريقةٍ هي أن تدعه يقرأ أمامك كل يومٍ قطعةً من جريدةٍ تختارها له، أو موضوعاً من كتابٍ مدرسيٍّ من كتب الإنشاء ثم تناقشه فيما يفهمه من المقال، وتوضّح له الألفاظ والمعاني. فإذا فهم عشرين أو ثلاثين مقالاً على هذه الطريقة فإنّه

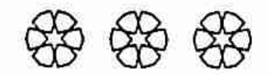
---

(١) رسائل الرافعي: ٤٠، ٤١.

(٢) رسائل الرافعي: ٤٢.

ينطلق في التعبير بسهولة، ويجمعُ في ذهنه معانيَ طيبةً، وألفاظاً كثيرةً يعبّر بها. وأضف إلى ذلك أن تعطيَهُ كلّ يوم بيتاً من الشعر يكون فيه معنىً حسّيٌّ فيفهم البيت ويشرحه كتابةً ثم تصلح له فهمه إنْ أخطأ، ويعيد الكتابةَ على البيتِ مرة أو اثنتين أو أكثر فإن حفظ أربعين أو خمسين بيتاً وفهم معانيها، وصار يحسن كتابتها مَرَّ بعد ذلك من تلقاء نفسه»[1].

* «وهذه هي عين الطّريقة التي كان يتّبعها الأدباء قديماً في الأخذ عن الرواة وأمثالهم، ولا أَفْيَدَ منها إذا كان المعلم مستحكماً ممتلئاً فإن تلميذه يستوفي بها علمه في أقرب مدّة»[2].



(١) رسائل اللرافعي: ١٣٨.

(٢) رسائل الرافعي: ١٥٣.



وصيّة علي الطنطاوي

(ت ١٤١٩هـ)

«من الخطأ أن يعتقد امرؤٌ أنّ الكتابة شيءٌ يكون بالتعليم. فهي شيءٌ فطريّ في الإنسان، والكاتب ـ كما قالوا ـ يولد كاتباً، كما يولد الإنسان ذا صوتٍ جميل، أو جسم قويّ، ولكنّ الصوت الجميل يبقى ناقصاً إذا لم يدرس صاحبه الموسيقى، والجسم القويّ لا يستكمل قوّته مالم يربّه صاحبه التربية البدنية، والملكة الكتابيّة لا تكمل ولا تنتج الآثار البارعة ما لم تنضجها الدراسة الأدبيّة العميقة، وخير سبيل لإنماء هذه الملكة عند الطّلاب هو أن يقرؤوا كتب الأدب القديمة ليتعلّموا منها الأسلوب العربيّ، ثم يقرؤوا لأهل البيان من كتّاب العصر، ثم يقرؤوا روائع الأدب الغربيّ لتعينهم على إتقان الأسلوب الفنيّ.

فإذا قعد بعد ذلك ليكتبَ فلا بدّ له أن يمرّ على المراحل الآتية:

١ ـ عمليّة الجمع:

وأعني بها جمع الأفكار والصّور، يجمعها من مشاهداته في الحياة، ومطالعاته في الكتب، وتنتهي هذه العمليّة حينما يشعر

الكاتب أنّ هذه الأفكار قد أصبحت واضحةً في ذهنه يستعرضها بسهولة ويستطيع الإحاطة بها.

٢ ـ عمليّة الاصطفاء:

فإذا انتهت هذه العمليّة شرع باصطفاء الصّور والحالات التي توافقه وتلَذّه، ونبذ الباقي، فإذا بقيت هذه الصّور وحدها واضحةً في ذهنه انتقل إلى العمليّة الثالثة وأمسك حينئذ بالقلم فبدأ.

٣ ـ عمليّة الترتيب أو التصنيف:

وذلك بأن يضع كل صورة أو فكرةٍ في المكان الملائم لها، وليس هناك قاعدة صحيحة للبداءة بالقصّة، بل إنّ ذلك منوط بذوق الكاتب، وكثير من الكتاب يبدؤون بعرض أبطال القصّة أولاً، وبعضهم يبدأ بالزّمان والمكان أو الحادثة.

٤ ـ عمليّة اختيار الأسلوب:

فأتصوّر نوع الأسلوب الذي أكتب به المقالة والألفاظ والتعبيرات التي أستعملها فيها، وما إلى ذلك. ومن المعروف أن الأسلوب يختلف باختلاف الموضوعات، فلا تكتب المقالة الوصفيّة بالأسلوب الخطابيّ، ولا المذكّرات والرسائل العائلية بأسلوب القصّة المسرحية. ومن المعروف أنّ لكل أسلوبٍ قواعدَ تختلف عن قواعد الأسلوب الآخر.

٥ ـ ثم يبدأ الكتابة: مراعياً التصنيف الذي وضعه لنفسه، ويضع لكل مقال مقدّمةً جذّابة يكون فيها براعة استهلال، وخاتمةً مؤثرة فيها حسن الاختتام.

أما الألفاظ. . . فإنّي كلما تقدّمت شعرت من نفسي بميلٍ إلى انتقاء أسهل العبارات، وأقربها إلى اللغة المألوفة، ونفورٍ من زخرفة الجمل والعناية بالألفاظ.

وقد كانت هذه الزخرفة وهذه العناية بالألفاظ أكبرَ همّي أولاً، حتى لقد كنت أحسب البراعة في الكتابة بمقدار ما فيها من رنّة موسيقيّة، لا بمقدار ما فيها من أفكار. ولا أبالي بنقد الناقدين لهذه الطريقة اللفظيّة الجوفاء، ولا أقيم له وزناً، كما أنّ إخواننا هؤلاء لا يبالون - كما أقدّر - هذه الكلمة مني، ولا يقيمون لها وزناً.

بقي عليّ كلمة واحدةٌ وهي:

إنّ كثيرين من الكتّاب يميلون إلى معرفة آراء الناس بكتاباتهم، ويهتمّون بهذه الآراء جداً، حتى إنها لتشجّعهم إذا كانت حسنةً، وتُذهب عزائمهم إذا كانت سيّئة. وهؤلاء الكتّاب يخسرون كثيراً من مواهبهم، وينحطّون عن المنزلة التي وضعهم الله فيها يوم جعلهم كتّاباً واختارهم لتبليغ رسالة القرون الآتية. فلا تعتادوا هذه العادة، ولا تبالوا بأذواق الناس إذا خالفت أذواقكم، ولكن استمعوا إلى نقدهم إذا كان يستند إلى أساسٍ علميٍّ صحيح. أما إذا استند إلى الذّوق وحده فلا. . . ولو كان ذوق أستاذكم»[1].



(١) فكر ومباحث: ١٤٣ - ١٤٦ بتصرّف يسير.



المراجع

١ - **أخبار النحويين** - أبو طاهر عبدالواحد بن عمر المقرئ - تحقيق: د. محمد زينهم محمد عزب - دار الآفاق العربية - القاهرة - ١٤٢٣هـ. وهو مطبوعٌ مع كتاب: أعلام الكلام لابن شرف القيرواني.

٢ - **الأدب المفرد** - البخاريّ - خرج أحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي - دار البشائر الإسلامية - بيروت - ط٣، ١٤٠٩هـ.

٣ - **الاشتقاق** - ابن دريد - تحقيق: عبدالسلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط٣.

٤ - **بدائع البدائه** - علي بن ظافر الأسديّ - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصريّة - بيروت - ١٤١٣هـ.

٥ - **بهجة المَجالس وأنس المُجالس** - ابن عبدالبرّ القرطبي - تحقيق: محمد مرسي الخولي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢.

٦ - **البيان والتبيين** - الجاحظ - تحقيق: عبدالسلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ٥، ١٤٠٥هـ.

٧ - **تاج العروس من جواهر القاموس** - محمد مرتضى الزّبيدي - تحقيق: علي شيري - دار الفكر - بيروت - ١٤١٤هـ.

٨ - **تاريخ آداب العرب** - مصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربيّ - بيروت - ط٤، ١٣٩٤هـ.

٩ - **تاريخ النّقد الأدبيّ عند العرب** - د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - ط٣، ١٤٠١هـ.
١٠ - **تحرير التحبير في صناعةِ الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن** - ابن أبي الإصبع المصريّ - تحقيق: د. حفني محمد شرف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة.
١١ - **تفسير القرآن العظيم** - إسماعيل بن كثير الدمشقيّ - دار الحديث - القاهرة - ط١، ١٤٠٨هـ.
١٢ - **تنبيه الألباب على فضائل الإعراب** - ابن السرّاج الشّنترينيّ - تحقيق: د. عبدالفتاح حموز - دار عمار - عمّان - ط١، ١٤١٦هـ.
١٣ - **تهذيب الآثار** - محمد بن جرير الطبريّ - تحقيق: محمود محمد شاكر - مطبعة المدني - القاهرة.
١٤ - **تيسير المنفعة بكتابي مفتاح كنوز السنّة والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النّبويّ** - محمد فؤاد عبدالباقي - دار الحديث - بيروت - ط٢، ١٤٠٤هـ.
١٥ - **خزانة الأدب ولبّ لباب لسانِ العرب** - عبدالقادر بن عمر البغدادي - تحقيق: عبدالسلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة.
١٦ - **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار** - جار الله الزمخشريّ - تحقيق: د. سليم النعيمي - منشورات الشريف الرضيّ - قم - إيران - ط١، ١٤١٠هـ.
١٧ - **رسائل الرافعي** - جمع وترتيب: محمود أبو ريّة - دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) - القاهرة - ١٣٦٩هـ.
١٨ - **زاد المعاد في هدي خير العباد** - ابن قيّم الجوزية - تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة (بيروت)، ومكتبة المنار الإسلامية (الكويت) - ط١٤، ١٤٠٧هـ.
١٩ - **الزاهر في معاني كلمات الناس** - أبو بكر محمد بن القاسم الأنباريّ - تحقيق: د. حاتم صالح الضامن - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١، ١٤١٢هـ.

٢٠ ـ **سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون** ـ جمال الدين بن نباتة ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة المصرية ـ بيروت ـ ١٤٠٦هـ.

٢١ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة** ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ عمّان ـ ط٥، ١٤٠٥.

٢٢ ـ **سنن أبي داود** ـ تعليق: عبيد عزّت دعّاس ـ نشر وتوزيع: محمد علي السيّد ـ حمص ـ ط١، ١٣٨٨هـ.

٢٣ ـ **سنن الترمذي** ـ تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر ـ المكتبة التجارية ـ مكة.

٢٤ ـ **السنن الكبرى** ـ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ـ دار الباز ـ مكة المكرمة ـ ١٤١٤هـ.

٢٥ ـ **سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي وحاشية السندي** ـ تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط٣، ١٤٠٩هـ.

٢٦ ـ **سير أعلام النبلاء** ـ شمس الدين الذهبيّ ـ تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٤، ١٤٠٦هـ.

٢٧ ـ **سيرة النبيّ ﷺ** ـ ابن هشام ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد ـ دار الفكر.

٢٨ ـ **شرح مقامات الحريريّ** ـ أبو العباس الشّريشيّ ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ المؤسسة العربية الحديثة ـ القاهرة.

٢٩ ـ **صحيح مسلم بشرح النوويّ** ـ مؤسسة قرطبة ـ ط١، ١٤١٢هـ.

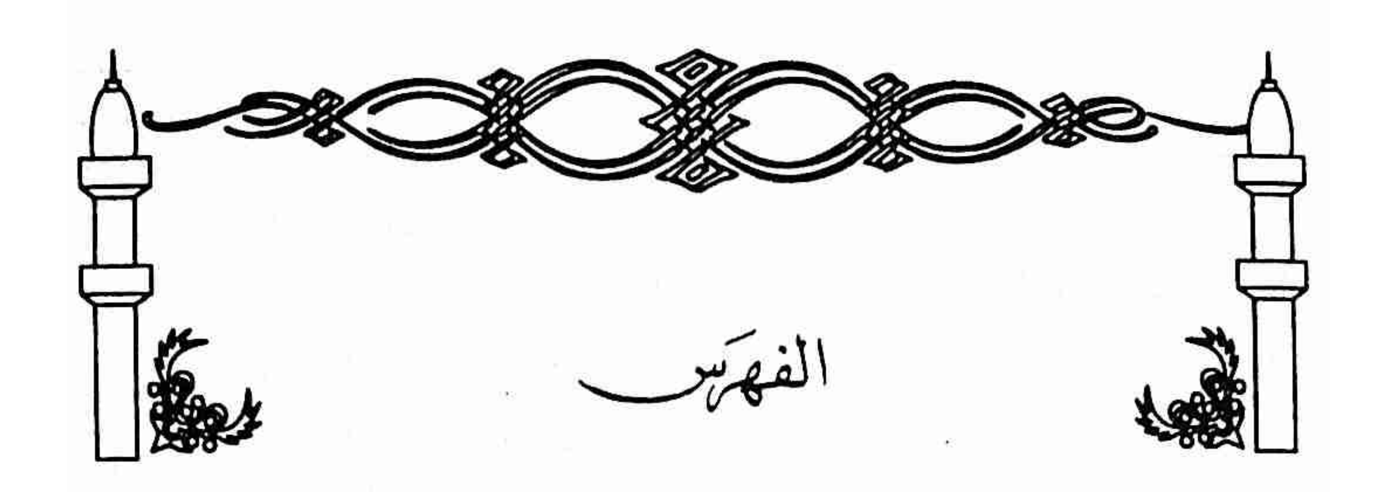
٣٠ ـ **صناعة الحياة** ـ محمد أحمد الراشد ـ دار المنطلق ـ دبي ـ ط١، ١٤١٠هـ.

٣١ ـ **العقد الفريد** ـ أحمد بن محمد بن عبد ربّه ـ تحقيق: د. مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣٢ ـ **علم اللغة الاجتماعي** ـ د.كمال بشر ـ دار غريب ـ القاهرة ـ ط٣، ١٩٩٧.
٣٣ ـ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** ـ أبو الحسن بن رشيق القيروانيّ ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد ـ دار الرشاد الحديثة ـ الدار البيضاء.
٣٤ ـ **عيون الأخبار** ـ أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ـ تحقيق: القسم الأدبي بدار الكتب المصرية ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ـ القاهرة.
٣٥ ـ **غريب الحديث** ـ ابن قتيبة الدينوري ـ تحقيق: د.عبدالله الجبوري ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ط١، ١٣٩٧م.
٣٦ ـ **غريب الديار** ـ د.عبدالرحمن بارود ـ دار الفرقان للنشر والتوزيع ـ عمّان ـ ط١، ١٤٠٩هـ.
٣٧ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ـ ابن حجر العسقلاني ـ تحقيق: عبدالعزيز بن باز ـ تصحيح: محب الدين الخطيب ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٣٨ ـ **الفتح الربّاني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني** ـ أحمد عبدالرحمن البنّا ـ دار الشهاب ـ القاهرة.
٣٩ ـ **فكر ومباحث** ـ علي الطنطاويّ ـ مكتبة المنارة ـ مكة ـ ط٢، ١٤٠٨هـ.
٤٠ ـ **الفنون الصغرى (السفر الخامس)** ـ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري ـ مطبوعات نادي الطائف الأدبي ـ ط١، ١٤٠٥هـ.
٤١ ـ **في الأدب الحديث** ـ عمر الدسوقي ـ دار الفكر ـ ط٦.
٤٢ ـ **في سبيل الإصلاح** ـ علي الطنطاوي ـ مكتبة المنارة ـ مكة ـ ط٢، ١٤٠٨هـ.
٤٣ ـ **القاموس المحيط** ـ الفيروزابادي ـ تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢، ١٤٠٧ هـ.

٤٤ ـ **قصص العرب** ـ محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر ـ القاهرة ـ ١٣٩٩هـ.
٤٥ ـ **الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار** ـ ابن أبي شيبة ـ ضبطه: محمد عبدالسلام شاهين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١، ١٤١٦هـ.
٤٦ ـ **اللغةُ بين المعياريّة والوصفيّة** ـ د. تمام حسان ـ عالم الكتب ـ الكويت ـ ط٤، ١٤٢١هـ.
٤٧ ـ **اللغة العربية والنهضة القومية** ـ أبحاث ندوة اللغة العربية والنهضة القومية ١٩٩٦هـ ـ المجمع العلمي ـ بغداد ـ ١٩٩٧م.
٤٨ ـ **المثل السائر** ـ ضياء الدين ابن الأثير ـ تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة.
٤٩ ـ **مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا** ـ دار الدعوة ـ الإسكندرية ـ ١٩٩٠م.
٥٠ ـ **مدخل إلى اللغة** ـ د. محمد حسن عبدالعزيز ـ دار الفكر العربيّ ـ القاهرة.
٥١ ـ **مذكراتي** ـ محمد مهدي الجواهري ـ دار المنتظر ـ بيروت ـ ط١، ١٩٩٩م.
٥٢ ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** ـ السيوطي ـ تحقيق: محمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ.
٥٣ ـ **المستدرك على الصحيحين** ـ الحاكم ـ تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١، ١٤١١هـ.
٥٤ ـ **المصنف** ـ عبدالرزّاق بن همّام الصنعانيّ ـ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظميّ.
٥٥ ـ **معجم الأدباء** ـ ياقوت الحمويّ ـ دار الفكر ـ ط٣، ١٤٠٠هـ.
٥٦ ـ **المعجم الأوسط** ـ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق: طارق بن عوض الله، عبدالمحسن الحسيني، دار الحرمين ـ القاهرة ـ ١٤١٥هـ.

٥٧ - **المعجم الكبير** - الطبراني - مكتبة العلوم والحكم - الموصل - ط٢، ١٤٠٤هـ.
٥٨ - **مفتاح كنوز السنّة** - دكتور ا. ي. فنسنك - نقله إلى العربيّة: محمد فؤاد عبدالباقي - دار الحديث - القاهرة - ط١، ١٤١١هـ.
٥٩ - **مقدّمات الشيخ علي الطنطاوي** - مجْد مكي - دار المنارة - جدة - ط١، ١٤١٨هـ.
٦٠ - **مقدّمة ابن خلدون** - دار القلم - بيروت - ط٧، ١٤٠٩هـ.
٦١ - **مقدمة في صناعة النظم والنثر** - شمس الدين محمد بن حسن النواجي - تحقيق: د. محمد عبدالكريم - دار مكتبة الحياة - بيروت.
٦٢ - **مكارم الأخلاق** - أبو بكر عبدالله بن محمد القرشي - تحقيق: مجدي السيد إبراهيم - مكتبة القرآن - القاهرة - ١٤١١هـ.
٦٣ - **موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب** - د. موريس حنّا شربل - دار جروس بروس - طرابلس - لبنان - ١٩٩٦م.
٦٤ - **النظرات** - مصطفى لطفي المنفلوطي - دراسة وتقديم: د. رياض قاسم - منشورات بحسون الثقافية - بيروت - ط١، ١٩٨٧م.
٦٥ - **نفْحُ الطيب من غصن الأندلس الرطيب** - المقّري - تحقيق: د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٤٠٨هـ.
٦٦ - **الوساطة بين المتنبي وخصومه** - علي بن عبدالعزيز الجرجاني - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي - المكتبة العصريّة - بيروت.
٦٧ - **وحي الرسالة** - أحمد حسن الزيات - مكتبة نهضة مصر - القاهرة - ط٥، ١٣٨٤هـ.
٦٨ - **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** - أبو منصور الثعالبيّ - تحقيق: د. مفيد محمد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١، ١٤٠٣.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



إصدارات معهد مكة المكرمة بجدة

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	كلمات في منهجية طالب العلم	د. عبدالرحمن الجرعي
٢	كلمات ولكن ليست في الهواء	الشيخ إبراهيم الحارثي
٣	ترشيد الاختلاف	الشيخ أحمد البغدادي
٤	من فقه الداعية	د. عبدالرحمن الجرعي
٥	قليلاً من الأدب	د. عادل باناعمة
٦	زاد الرواحل	د. علي بن حمزة العُمري
٧	الفتاوى الطبية المعاصرة	د. عبدالرحمن الجرعي
٨	الإرهاب (التشخيص والحلول)	د. عبدالله بن بيه
٩	أثر المصلحة في الوقف	د. عبدالله بن بيه
١٠	التصنيف في الحديث	د. خلدون الأحدب
١١	كيف تبني ثقافتك	د. علي بن حمزة العُمري
١٢	أثر علم أصول الحديث في تشكيل عقل المسلم	د. خلدون الأحدب
١٣	صلاة التطوع	د. خلدون الأحدب
١٤	حبيب الرحمٰن الأعظمي	
١٥	الفتح الرباني في شرح نظم ابن أبي زيد القيرواني	د. علي بن حمزة العُمري
١٦	قافلة النور	د. علي بن حمزة العُمري
١٧	الصحة الإيمانية	د. علي بن حمزة العُمري
١٨	أمير الأنام	د. علي بن حمزة العُمري
١٩	الإحساس بالذنب	د. علي بن حمزة العُمري
٢٠	محبة الرسول ﷺ	د. محمد الحسن الددو
٢١	ومن الليل فتهجد	د. يوسف القرضاوي
٢٢	روائع الأسحار	د. إبراهيم الدويش
٢٣	دعوة للفرح	د. عادل باناعمة
٢٤	من ثمار العلماء	الشيخ خالد محمد نور
٢٥	بطاقات تربوية	د. علي بن حمزة العُمري
٢٦	صور التحايل على الربا في الزمن المعاصر	د. أحمد سعيد حوّا